كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

آلة الزمن

وقصص أخرى

23

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العـــد التـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

الظـــلال

(قصة قصيرة)

« أنت الطبيب الجديد إذن ! » .

نطق مدير مستشفى الأمراض العصبية والنفسية هذه العبـارة ، فى شىء من الضجر ، وهو يتطلّع إلى الطبيب الشاب ، الـذى قدّم أوراق تعيينه على الفور ، وتنهّد فى ملل واضـح ، قبل أن يلقى الأوراق فى لا مبالاة على سطح المكتب ، مستطردًا :

- أوراقك تقول : إنك طلبت العمل هنا بإرادتك .. أهذا صحيح ؟

أومأ الطبيب برأسه إيجابا ، فمط المدير شفتيه ، وكأنما لم يرق له هذا ، وقلب كفه ، متمتما :

ـ عجبا !.. إنها أول مرة يحدث فيها هذا .. دائما يطلبون الانتقال من هنا ، إلى أى مستشفى آخر فى العاصمة .

قالها ، وتنهد ثانية ، قبل أن ينهض من خلف مكتبه ، مستطردا :

ـ فليكن .. دعنا نر كم ستحتمل البقاء معنا .. هيا .. دعنى أرافقك فى جولة لتتعرف المستشفى وأقسامه .

سارا جنبا إلى جنب ، يجولان فى المستشفى ، والمدير يشرح له أقسامها المحدودة ، حتى بلغا قسما يحمل بابه علامة رديئة ، بطلاء أحمر داكن ، فأشار المدير إلى ذلك الباب ، قائلا :

ـ أما هذا ، فعنبر المرضى البالغى الخطورة .

ارتفع حاجبا الطبيب الشاب ، وهو يردد :

ـ مرضى بالغو الخطورة ؟! ألدينا هنا مرضى بالغو الخطورة ؟!

هز المدير كتفيه ، وقال وهو يدفع الباب :

ـ كل المستشفيات بها مرضى بالغو الخطورة .

تطلع الطبيب داخل القسم فى فضول ، وارتفع حاجباه فى دهشة ، عندما لم يجد أمامه سوى مريض واحد ، أدار عينيه إليهما فى توتر ، وبدت منه حركة تشف عن لهفته لاستقبالهما ، فتمتم المدير فى ضجر ، وهو يزفر متوترا :

ـ وبالنسبة لنا ، عندنا مريض واحد ، ولكنه مرهق للغاية .

انعقد حاجبا الشاب فى تساؤل ، وهو يتطلع إلى المريض ، الذى أسرع إليهما ، والرعب يملأ وجهه ، وهتف موجها حديثه إليه مباشرة :

ـ أخرجنى من هنا .. أرجوك .. حاول أن تصدقنى .. أخبر المسئولين أن الأرض فى خطر .. تلك الظلال تخطط لغزوها .. أخبرهم بالله عليك .

غمغم الطبيب الشاب فى دهشة :

ـ الظلال ؟!

تعلق به المريض ، قائلا فى انفعال :

ـ نعم .. الظلال القادمة من ذلك الكوكب البعيد ، فى نهاية المجرة .. لقد كشفت خطتهم بالمصادفة ، وعلمت أنهم يخططون لغزو الأرض ، ولابد أن أحذر المسئولين ، قبل أن تقع الكارثة .. أخرجنى من هنا .. هيا .. أسرع .

حدق الطبيب الشاب فى وجهه بدهشة ، وتمتم :

ـ لا يمكننى هذا .. إننى مجرد ...

قاطعه المريض بصرخة هادرة :

ـ لا تقل إن هذا ليس بإمكانك .. لابد أن يصدقنى أحد .. أريد أن أخرج من هنا ، قبل أن يقتلونى .. أخرجنى من هنا .. أخرجنى من هنا .

صرخ بكلماته ، وهو يدفع الطبيب الشاب أمامه فى عنف ، حتى أنه فقد توازنه ، وسقط أرضا ، فوثب المريض يتجاوزه ، وانطلق يعدو خارج المكان ، وصرخ المدير :

ـ الحقوا بهذا المجنون .. أعيدوه إلىَ هنا .

أسرع ثلاثة من الممرضين خلف المريض ، الذى حاول أن يراوغهم ، إلا أنهم حاصروه ، وانقضوا عليه فى شراسة ، فراح يقاوم فى استماتة ، وهم يحملونه إلى القسم ، وصرخاته تدوى فى المكان :

ـ لا .. لا تعيدونى إلى هناك .. أخرجونى باللّه عليكم .. أبلغوا المسئولين .

ألقاه الممرضون فوق فراشه فى قسوة ، وراحوا يقيدون معصميه إلى حاجزه ، فانعقد حاجبا الشاب ، وهو يغمغم :

ـ أهذه القسوة ضرورية ؟

تنهّد المدير ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ صدقنى .. بعد أن تقضى هنا شهرًا واحدًا ، لن تنظر إلى الأمر باعتباره قسوة ، بل مجرّد إجراءات أمن .

مطّ الشاب شفتيه فى عدم اقتناع ، ولكن المدير قاده بعيدًا ، وهو يقول فى أسف :

ـ هذا المريض كان معيدًا بكلية العلوم ، وكان يعدّ دراسات عليا حول الفلك والنجوم ، عندما أصابته هذه اللوثة بغتة . فراح يدّعى أن ظلالاً أتت من كوكب آخر ، وتحاول احتلال الأرض .. مسكين !

سأله الطبيب الشاب :

ـ ولماذا تراوده مثل هذا الفكرة العجيبة ؟

هزّ المدير كتفيه ، قائلاً :

ـ كل مرضى الانفصام الذهانى هكذا .. يسمعون أصواتًا عجيبة ، ويستشعرون الخطر من أمور غريبة .. لقد رأيت أحدهم مرة يرتجف رعبًا ، أمام خروف عادى .. تصوّر .

سأله الطبيب الشاب ، وهما يعودان إلى المكتب :

ـ ولكن الرجل كان معيدًا بكلية العلوم ، وهذا يعنى أنه يتمتّع بذكاء ما ، وليس من السهل أن يصاب مثله بالجنون .

لوّح المدير بيده ، وهو يعود للجلوس خلف مكتبه ، قائلاً :

ـ لا ينبغى أن تقول أنت بالذات هذا .. كلنا نعلم أن الفارق بين العبقرية والجنون مجرّد شعرة .

أجابه الطبيب الشاب :

ـ لست أتحدّث عن العبقرية ، وإنما عن الذكاء العادى .

زفر المدير فى ضجر ، وبدا من الواضح أن هذا الحديث لا يروق له ، وهو يقول :

ـ كلكم تميلون إلى الجدل يا شباب الأطباء .

ثم مال إلى الأمام ، واستطرد فى حزم :

ـ وفر أسئلتك هذه للأيام القادمة ، فكل شىء هنا سيشغل بالك طويلا ، قبل أن تعتاد هذا المناخ .

وعاد يتراجع فى مقعده ، ويبتسم فى شىء من الخبث والشماتة ، مستطردا :

ـ وبالمناسبة .. لقد وصلت فى موعدك تماما ، فنحن نعانى عجزا فى عدد الأطباء ، ولم يكن هناك من يتولى النوبتجية الليلية .

ساله الطبيب فى دهشة :

ـ أتعنى بالنسبة لليلة ؟!

نهض المدير من خلف مكتبه ، والتقط سلسلة مفاتيحه ، وهو يجيب :

ـ بل اعتبارا من هذه اللحظة .. إنها الثالثة ظهرا .. سأذهب إلى منزلى ، وأعود إليك فى الثامنة صباحا .. أنت المدير من الآن .. إلى اللقاء .

حاول الطبيب الشاب أن يعترض ، إلا أن المدير لم يمنحه الوقت ليفعل ، وإنما أسرع ينصرف تاركا إياه فى مكتبه ، فمط شفتيه ، وتمتم محنقا :

ـ ياللسخافة !.. إننى لم أستعد لهذا .

لم يكن هناك مجال للتراجع ، بعد أن انصرف المدير ، وأوكل إليه مهام منصبه ، فاستسلم للأمر ، وراح يؤدى عمله على خير ما ينبغى ، والساعات تمضى فى سرعة ، حتى غربت الشمس ، وبلغ الإرهاق منه مبلغه ، فألقى أوامره إلى الممرضين وطبيب الامتياز ، واتجه إلى حجرة النوبتجية ، ليحظى بقسط من الراحة ، و ...

وفجأة ، بلغ مسامعه ذلك الصوت ..

صوت رجل ينتحب ، ويهمهم بكلمات غير مفهومة ، يغلب عليها الحزن والمرارة والأسى ..

وكان الصوت يأتى من قسم المرضى البالغى الخطورة .

ولنصف دقيقة كاملة ، توقف الطبيب الشاب أمام باب القسم ، يستمع إلى النحيب والهمهمة ، قبل أن يحسم أمره ، ويفتح الباب ، ويدلف إلى المكان .

كان المريض ينتحب ويهمهم بالفعل ، ولكنه لم يكد يلمح الطبيب ، حتى توقف عن هذا وذاك ، وتطلع إليه لحظة فى صمت ، قبل أن يسأله فى حذر :

ـ هل ستخرجنى من هنا ؟

ألقى الطبيب نظرة على قيود المريض ، ليتأكد من أنه لن يستطيع مهاجمته ، كما فعل فى السابق ، ثم اتجه إلى الفراش المجاور له ، وهو يجيب :

ـ ليس بعد .

احتقن وجه المريض ، وهو يقول فى حدة :

ـ لا وقت لهذا .. سيبدءون خطة الغزو بعد أيام ، ولابد من تحذير المسئولين ، قبل فوات الأوان .

سأله الطبيب فى حذر :

ـ وكيف عرفت هذا ؟

هتف المريض ، وهو يبذل جهده للتخلص من قيوده :

ـ وما فائدة أن أخبرك ؟.. إنك لن تصدقنى ..

أجابه الطبيب فى صرامة :

ـ لابد أن أعرف .

التقى حاجبا المريض ، وهو يتطلع إليه فى حذر ، قبل أن يقول :

ـ وماذا لو أخبرتك ؟.. هل تعدنى بأن تساعدنى على الخروج من هنا ، لو اقتنعت بقصتى ؟

أجابه الطبيب فى حذر :

ـ ربما .

صمت المريض بضع لحظات ، وهو يتطلع إليه ، ثم قال :

ـ فليكن .. سأروى لك القصة كلها .

واعتدل بقدر ما تسمح به قيوده ، قبل أن يتابع :

ـ لقد بدأ كل هذا عندما كنت أقوم بأبحاثى ، فى مرصد (حلوان) .. أيامها كنت شديد الحماس لرسالة (الماجستير) ، التى أعدها ، حول الفلك والنجوم ، وإمكانية إجراء اتصالات مع حضارات أخرى فى المستقبل ، مما دفعنى للعمل وحدى ، حتى ساعات متأخرة من الليل ، بتصريح خاص من مدير المرصد ،

الذى سمح لى باستخدام كل الإمكانيات المتاحة ، التى يمكن أن تساعدنى على إتمام رسالتى .. وذات ليلة ، انهمكت فى العمل حتى وقت متأخر للغاية ، وأصابنى التعب والإجهاد ، فاستلقيت فوق أريكة كبيرة ، واستغرقت فى النوم .

ارتسم الذعر على وجهه ، عندما بلغ هذه النقطة ، ولهث فى انفعال ، وكأنما يستعيد ذكرى مخيفة ، قبل أن يتابع :

ـ وعندما استيقظت ، كانوا هناك .

سأله الطبيب فى حذر :

ـ من هم ؟!

غلب الانفعال المريض ، وهو يجيب :

ـ الظلال .. الظلال القادمة من كوكب آخر .. لم ينتبهوا إلى وجودى ، فراحوا يتحدثون فى حرية عن وصولهم إلى هنا ، عبر (التليسكوب) الكبير فى المرصد ، لأنهم يستطيعون الانتقال بسرعات أقرب إلى سرعة الضوء ، بسبب طبيعتهم غير المادية .

انعقد حاجبا الطبيب ، وهو يغمغم :

ـ غير المادية ؟!.. كيف يكونون غزاة ، بدون جسد مادى ؟!

أجابه المريض بسرعة :

ـ الحياة لا تحتاج بالضرورة إلى جسد مادى .. ربما كانت هذه قاعدة مسلّم بها فى كوكبنا فحسب ، ولكنها ليست كذلك فى أجزاء الكون الأخرى .. تلك المخلوقات بالتحديد ليست سوى شكل من أشكال الطاقة ، على هيئة ظلّ مجرّد ..

صمت الطبيب بضع لحظات ، قبل أن يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ معذرة .. لا يمكننى استيعاب فكرة وجود كائن حى عاقل بلا جسد .

قال المريض فى توتر :

ـ ليس المهم هو الجسد .. المهم هو الروح .. والروح ليست جسمًا ماديًا ، ولا يمكن أن تكون كذلك .. فماذا لو أن الخالق (عزّ وجلّ) قد نفخها فى دفقة من الطاقة .. ألن تصبح عندئذ كائنًا حيًا ؟

انعقد حاجبا الطبيب مرة أخرى ، وكأنما يحاول استيعاب هذا المنطق ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ ولكن ، لو أن هذه الظلال مجرد كائنات غير مادية ، فكيف أمكنك سماع حديثها ، حول خطة غزو الأرض .. بل كيف يمكنها أن تتحدث أساسًا ؟!

أجابه المريض فى انفعال :

ـ إنها لا تحيا بهيئتها الطبيعية ، عندما تصل إلى الأرض ، بل تغوص فى أجساد البشر ، وتسيطر على جزء منها ، لتتحرك وتتصرف من خلاله ، تمهيدًا للغزو .

بدا الاهتمام على وجه الطبيب ، وهو يسأل :

ـ هذا يعنى أن هؤلاء الغزاة يمكن أن يتواجدوا بيننا ، دون أن نشعر بوجودهم .

أجابه فى حماس :

ـ بالضبط .. أخيرًا فهمت ما أعنيه .. إنهم يتواجدون بيننا ، دون أن نشعر بوجودهم .. بل والأدهى أنهم يختبئون فى أعماق أشخاص لا يدركون حتى أن أجسادهم محتلة بوساطة الظلال .. إنهم يحيون حياة طبيعية ، حتى تحتاج الظلال إلى أجسادهم ، فتبرز على السطح ، وتسيطر على عقولهم مرحليًا ، وتدفعهم لفعل ما يحلو لهم .

تراجع الطبيب فى دهشة ، وهو يردد :

ـ يا للهول !.. يا للهول !

ثم عاد يميل نحوه ، ويسأله فى شغف :

ـ إذن فقد سمعت أنت حديثًا يدور بين رجلين ، من احتلت كائنات الظلال أجسادهم .. أليس كذلك ؟!

أجابه المريض :

ـ بلى .. رأيتهما يقفان عند (التليسكوب) الكبير ، وظل عجيب الهيئة يتراقص على وجهيهما ، وهما يتحدثان عن الأمر ، ويصفان الخطة كلها .

سأله الطبيب فى لهفة :

ـ وماذا فعلت عندئذ ؟

زفر فى توتر ، قبل أن يجيب :

ـ لم أفعل شيئـا .. فقط انكمشت فى مكـانى ، ودعوت الله (سبحانه وتعالى) ألا ينتبها إلـى وجودى ، وظللت أراقبهمـا فى حذر ، وقلبى يدق فى قوة ، حتى خشيت أن تلفت دقاته انتباههما إلىّ .

تضاعف اهتمام الطبيب ، وبدا وكأنه يتابع قصة مثيرة للغاية ، وهو يسأل :

ـ ثم ماذا ؟

تنهّد المريض مرة أخرى ، وأجاب :

ـ لم يكـن وقوفهما إلى جوار (التليسكـوب) الكبيـر مجـرّد مصادفة ، وإنما كانا يستقبلان بعض الوافدين الجـدد .. عددًا من الظلال غير المادية ، تدفّقت عبر العدسة العينية (للتليسكوب) ، وكأنها مـاء يتدفّق عبر صنبور صغير ، وراحت تتراقص فـى المكان على نحو مخيف ، ذكّرنى بأفلام الرعب الأمريكية القديمة ، ووقف الرجلان يشرحان لفريق الوافدين الجـدد كيفيـة احتـلال الأجساد ، والسيطرة عليها لمـدة نصف سـاعة كاملـة ، كـاد قلبى يتوقّف خلالها من شدة الرعب ، وأصابنى الجفـاف مـن شـدة ما أرقت من العرق ، قبل أن ينصرف الجميع ، ويتركوننى فى حالة يرثى لها ، وقد تجمّدت من شدة الخوف ، ولم أعد قادرًا حتى على التفكير .

اتسعت عينا الطبيب ، وهو يتمتم :

ـ رباه !.. وهل ظللت هكذا طويلا ؟

هزّ المريض رأسه ، وترقرق الدمع فى عينيه ، وهو يقول :

ـ حتى الصباح التالى .. أعترف أننى لم أجرؤ على التحرّك ، حتى أشرقت الشمس ، وكأنما ارتبط الليل فى ذهنى بـالرعب والظلال ، ولكننى لم أكد انـتزع نفسى من حالـة الذعر والجمود هذه ، حتى هرعت إلى مدير المركز ، وشرحت لـه مـا حدث ، ولكنه لم يصدّقنى بـالطبع ، وتصوّر أن كل هذا مجرّد كـابوس ، انتابنى فى أثناء نومى داخل المرصد .

سأله الطبيب :

ـ ألا يحتمل أنه كذلك ؟!

هتف المريض فى حدة :

ـ مستحيل !.. أنا رجل علمى ، أدرك جيدًا الفارق بين الحقيقـة والكوابيس .. ربما يبدو الأمر بالفعل أشبه بكابوس ثقيل ، ولكنـه ليس كذلك أبدًا .. إنه حقيقة .. حقيقـة رفض الجميـع تصديقهـا ، واتهمونى من أجلها بالجنون ، وألقوا بى فى هذا المكان الحقير .

ارتفع فجأة صوت صارم ، يقول :

ـ وأنت تستحق البقاء فيه إلى الأبد .

التفت المريض والطبيب فى سرعة ودهشة إلى مصدر الصوت ، وارتسم الرعب على وجه الأول ، فى حين انعقد حاجبا الثانى ، وهو يقول فى عصبية :

ـ سيادة المدير !.. يالها من زيارة مفاجئة !

رمقه المدير بنظرة صارمة ، قبل أن يجيب فى غضب :

ـ يبدو أنها أتت فى موعدها تماما .. قل لى بالله عليك : ماذا تفعل هنا ؟

نهض الطبيب ، مجيبا فى هدوء حازم :

ـ المفترض أننى مسئول عن المكان كله ، حتى الثامنة من صباح الغد ، أليس كذلك ؟

بدا الغضب أكثر على وجه المدير ، وهو يرمق المريض بنظرته الصارمة هذه المرة ، ويقول فى حدة :

ـ بلى ، ولكن بشرط ألا تفسد الأمور .

أجابه الطبيب فى حزم أكثر :

ـ إننى أؤدى واجبى .

قال المدير فى عصبية :

ـ اسمع يا رجل .. أنت حديث العهد هنا ، ولم تدرك بعد طبيعة الأمور ، ولو أنك منحت أذنك واهتمامك طويلا للمرضى ، لانضممت إليهم قبل أن ينقضى شهر واحد .

بدا الضيق على وجه الطبيب ، وهو يشير إلى المريض ، قائلا :

ـ مهمة الطبيب النفسى أن يمنح المرضى أذنيه واهتمامه ، وإلا فكيف يمكنه مداواتهم ..؟

قال المدير فى حدة :

ـ ليس كل المرضى .. هذا بالذات مصاب بانفصام ذهانى لا يقبل الجدل ، والإنصات إليه إضاعة بلا جدوى للوقت .. هل استمعت إلى قصته ؟!.. هل يبدو لك أى جزء منها منطقيا ؟

أجابه الطبيب صارما :

ـ ربما لا تبدو قصته مألوفة ولكنها تتتابع على نحو منطقى .

التقى حاجبا المدير فى شدة ، وهو يقول :

ـ هكذا ؟!

ثم أدار عينيه إلى المريض ، مستطردا بلهجة قاسية :

ـ إذن فقد صار هذا الرجل خطرا بالفعل .

انكمش المريض فى مكانه فى رعب هائل ، وهو يحدق فى وجه المدير فى ارتياع ، فى حين قال الطبيب الشاب فى عصبية :

ـ الرجل يبدو لى عاقلا للغاية ، وذهنه مرتب على نحو يثير الإعجاب ..

قال المدير فى غضب :

ـ هكذا ؟!.. من الواضح أنك لم تدرس مثل هذه الأمور جيدا ، أو لم تتعامل معها بشكل كاف ، فكل مرضى الفصام الذهانى يبدون غاية فى العقل والذكاء ، وحسن تنسيق وترتيب الأمور ، إلا أنهم فى واقع الأمر مجرد مرضى ، يعانون خوفا مبهما ، ومن هلاوس سمعية وبصرية .. كيف تصورتهم عندما التحقت بالعمل هنا ؟!.. بلهاء يرتدون طاسات الطهى على رءوسهم ، كما يظهرون فى الأفلام الهزلية ؟!

تنهد الطبيب ، وقال :

ـ كلا بالتأكيد ، ولكن ..

قاطعه المدير فى حدة :

ـ لا يوجد لكن .. سألغى نوبتجيتك منذ هذه اللحظة .. الحق بى فى مكتبى ، لنناقش هذا الأمر .

ثم التفت إلى المريض ، وقال فى صرامة :

ـ أما أنت ، فسأعود إليك فيما بعد .

قالها ، وغادر المكان كالعاصفة ، فانتفض المريض فى رعب هائل ، وتشبث بيد الطبيب ، قائلاً :

ـ لا تتركنى .. أرجوك .. لقد أثرت غضبه ، ولن يسمح لى بالبقاء بعدها قط .

قال الطبيب ، محاولاً تهدئته :

ـ الرجل مسئول عن المكان كله ، ومسئوليته تثقل كاهله ، و ..

قاطعه المريض فى عصبية :

ـ ليست مسألة مسئولية .. إنه واحد منهم .

اتسعت عينا الطبيب ، وهو يقول :

ـ واحد منهم ؟!

هتف المريض :

ـ بالتأكيد .. كل تصرفاته توحى بهذا .. لقد أبقى علىّ هنا فقط ؛ لأنه واثق من أن أحدًا لن يصدق قصتى ، أما الآن ، وبعد أن أبديت أنت شيئًا من التفهُّم والتصديق ، فلن يسمح لى بالبقاء .

بدا مزيج من الشك والقلق ، على وجه الطبيب ، وهو يتطلع إلى الباب ، الذى عبره المدير منذ لحظات ، متمتمًا :

ـ مستحيل !.. إنه يبدو لى شخصًا عاديًا .

هتف المريض :

ـ بالطبع .. وفيم سيختلف عن غيره .. فقط فى اللحظة التى يسيطر فيها الظلّ الكامن فى أعماقه عليه ، ستراه يتراقص على وجهه .

صمت الطبيب طويلاً ، وهو يتطلع إلى الباب ، فهزّ المريض يده ، قائلاً :

ـ لا تفقد ثقتك الآن بما أقول .. أنت أملى الوحيد .. قل : إنك تصدقنى .. قلها بالله عليك .

ظلّ الطبيب على صمته لحظات أخرى ، قبل أن يجيب فى بطء وعمق :

ـ نعم .. أنا أصدقك .

ثم أخرج من جيبه محقنًا ، وتطلع إلى السائل الرائق داخله ، قبل أن يضيف :

ـ وهنا تكمن المشكلة .

حدق المريض فى وجهه بدهشة ، ولم يقاومه وهو يغرس المحقن فى ذراعه ، ويدفع السائل الرائق فى عروقه ، وإنما تمتم فى ارتياع :

ـ أنت ؟!

أومأ الطبيب برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم يا رجل .. لقد صدقتك .. عقلى ومشاعرى البشرية استجابت لك ، وهذا يعنى أنه من المحتمل أن يحدث هذا الآخر فى المستقبل القريب ، وينكشف السر ، وتفشل خطة الغزو كلها .

انتفض جسد المريض فى عنف ، والسم يسرى فى عروقه ، وراح جسده ينهار تدريجيًا فى سرعة ، والدنيا تظلم أمام عينيه .

وقبل أن يلقى حتفه ، كان آخر ما وقع عليه بصره وجه الطبيب ، الذى بدا هادئًا ، جامدًا ، يخلو من أية انفعالات ، وفوقه يتراقص ظلّ ..

ظلّ عجيب الشكل .

* * *

(تمت)

اختبر معلوماتك

هذه المرة أيضا نلتقى .

وكما تعوّدنا دائما ، يدور اللقاء حول عدد محدود من الأسئلة ..

والمطلوب منك أن تقرأ السؤال جيدا ، مع ما يحويه من معلومة ، ثم تبحث عن الجواب المناسب ، بين الأجوبة الثلاثة المطروحة ، بعدها تراجع الأجوبة فى نهاية الكتاب .

وتسأل نفسك سؤالنا التقليدى ..

* * *

١ ـ « قائد مصرى ، عينه أبوه (محمد على) قائدا للحملة المصرية ضد الوهابيين ، فأخمد ثورتهم ، وقضى على حكمهم ، ثم عين قائدا للجيش المصرى ، ضد الثوار اليونانيين ، الذين

خرجوا على (تركيا) ، فانتزع معاقلهم ، وأخمد ثورتهم ، وكاد يبلغ (تركيا) نفسها ، على رأس جيش قوى ، لولا أن تدخلت أوروبا كلها ، وأجبرته على الجلاء ، وهذا القائد هو ... » .

☐ مراد بك . ☐ سيف الدين قطز . ☐ إبراهيم باشا .

٢ ـ « حاسة ندرك بها الأشياء والألوان ، وتعتمد على حاسية شبكية العين للضوء ، حيث تسقط عليها الصورة ، فتستقبلها العصى والمخاريط ، وتنقلها إلى العصب البصرى ، وهذه الحاسة تعرف باسم ... » .

☐ الإبصار . ☐ اللمس . ☐ السمع .

٣ ـ « عاصمة أثيوبيا ، أنشأها (فيليك الثانى) عام ١٨٨٧ م ، يربطها بـ (جيبوتى) ، على خليج عدن خط حديدى ، من المقياس المترى ، واجتمع بها رؤساء الدول الأفريقية عام ١٩٦٣ م ، لإعلان ميثاق الوحدة الأفريقية ، وهذه العاصمة هى ... » .

☐ أكرا . ☐ أديس أبابا . ☐ لتوانيا .

٤ ـ « عشائر الهنود ، التى كانت تسيطر على (المكسيك) الوسطى ، فى زمن الفتح الأسبانى ، جاءت إليها من الشمال ، وتنقلت فى البلاد ، حتى أسست العاصمة (تينوشتيتلان) ، وأقاموا حضارة ، جمعت تراث (التولتيك) و (الميكستيكا) ،

ولكن هذه الحضارة سقطت واندثرت ، تحت أقدام الأسبان ، وكانت هذه العشائر تحمل اسم ... » .

☐ الهنود الحمر . ☐ الأنكا . ☐ الأزتيك .

٥ ـ « آلة قديمة لقياس ارتفاعات الأجرام السماوية ، تتألف من قرص خشبى أو معدنى مدرّج ، ومعلّق فى وضع رأسى بحلقة ، وفى مركزه مؤشر متحرّك يسمى العضادة ، ويعود صنعه إلى أبولونيوس ، الذى منحه اسم .... » .

☐ الاسطرلاب . ☐ الدولاب . ☐ قيّاس النجوم .

٦ ـ « آلة موسيقية من أصناف المزامير ، كثيرة الاستعمال فى الريف المصرى ، وهى عبارة عن قصبتين مفتوحتين ، وملتصقتين بخيط ، وبكل منهما لسان مزمار ، له ريشة متذبذبة ، وإحدى القصبتين مزمار ذو ستة ثقوب ، والأخرى قصبة طويلة غير مثقوبة ، ذات نغمة واحدة ثقيلة ، وهذه الآلة تعرف باسم ... » .

☐ المزمار . ☐ الأرغول . ☐ الأرغن .

٧ ـ « كاتب مسرحى نرويجى ، يعتبر من أبرز الشخصيات العالمية ، فى أدب المسرح الحديث ، اشتهر بعد نشر مسرحيته الساخرة (ملهاة الحب) ، وبعدها أصدر عددا من أقوى المسرحيات المعروفة ، مثل : (الأدعياء) ، و (بيت الدمية) ، و (الأشباح) ، و (عدو الشعب) ، وهو يعرف باسم .... » .

☐ جورج أرويل . ☐ هانز أندرسن . ☐ هنريك ابسن .

٨ ـ « حيوان لاحم صغير ، من جنس (مسطيلا) ، يستوطن أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا وأمريكا الشمالية ، ومنه نوع يستوطن (مصر) ، ويعرف باسم (العرسة) ، وطولها حوالى ٣٨ سم ، بما فى ذلك الذيل ، واسم هذا الحيوان ... » .

☐ ابن عرس . ☐ الفأر . ☐ الأرنب الجبلى .

٩ ـ « عاصمة مقاطعة قرطبة بجنوبى الأندلس ، على نهر الوادى الكبير ، ازدهرت فى عهد الرومان ، وآلت للعرب عام ٧١١ م ، مع فتح الأندلس ، وبلغت أوج مجدها فى العصر الأموى ، ولقد كانت تشتهر بصناعات الذهب والفضة والجلود ، وهذه العاصمة هى ... » .

☐ غرناطة . ☐ قرطبة . ☐ مدريد .

١٠ ـ « مصنف كتاب (الفلاحة) ، عاش فى أشبيلية ، وقال ابن خلدون أن كتابه هو موجز لكتاب الفلاحة النبطية ، ولقد لخص هذا الكتاب أجنبى يدعى ماير ، ثم نشرت له ترجمة فرنسية ، وصاحب الكتاب هو ... » .

☐ ابن الهيثم . ☐ ابن رشد . ☐ ابن العوام .

١١ ـ « مرض ينتشر فى المناطق الحارة ، حيث الرطوبة مع الدفء ، ووصفه قدماء المصريين والعرب ، تسببه دودة صغيرة ، ويسبب فقر الدم ، والضعف والهزال والإرهاق ، ويعالج بالعقاقير الطاردة للديدان ، وهذا المرض هو ... » .

☐ الأنكلستوما . ☐ البلهارسيا . ☐ الأميبا .

١٢ ـ « حيوان ثديى مجتر ، ينتشر فى معظم أنحاء العالم ، فيما عدا استراليا ، للذكور منه قرون متشعبة ، تتساقط سنويًا ، ولقد هاجمها الهنود الحمر فى أمريكا ، حتى أبادوها تقريبا ، وهى تأكل الأعشاب والحزازيات ، وتعرف باسم .... » .

☐ الثور . ☐ الوعل . ☐ الأيل .

١٣ ـ « رياضة مائية ، تمارس فى حوض لا يزيد عرضه على عشرين قدما ولا يقل طوله عن تسعة عشر قدما ، ويتألف فريقها من سبعة لاعبين ، أحدهم حارس المرمى ، ويتم تمييز اللاعبين بأغطية رءوسهم ، والفريقان يتنافسان لإحراز أكبر عدد من الأهداف ، ويتم اللعب على أربعة أشواط ، ومدة كل شوط خمس دقائق فقط ، وهذه اللعبة هى ... » .

☐ السباحة الإيقاعية . ☐ كرة الماء . ☐ الغطس .

١٤ ـ « جمهورية فى شمال أمريكا الجنوبية ، وهى أكبر أقطار القارة ، إذ تحتل نصفها تقريبا ، وفى الشمال منها حوض نهر الأمازون ، من أشهر محاصيلها : البن ، والمطاط البرى ، ولكنها تهتم اهتماما كبيرا بتنمية صناعاتها ، بحيث تصبح بلدا زراعيًا صناعيًا فى الوقت ذاته ، وهذه الجمهورية هى ... » .

☐ كاراجواى . ☐ المكسيك . ☐ البرازيل .

١٥ ـ « اسم صينى ، يطلق على نوع من الأشجار ، وعلى المشروب الذى يصنع من أوراقها ، والشجرة فى النباتات دائمة الخضرة ، وتنسب إلى الفصيلة الكاميلية ، وأوراقها رمحية الشكل ،

خضراء داكنة ، يتم تجفيفها ، وتخميرها ، وطحنها ، بحيث يصنع منها المشروب ، الذى ينتشر فى العالم أجمع ، وهو ... » .

☐ الشاى . ☐ القهوة . ☐ الكاكاو .

١٦ ـ « حجر جيرى مكوّن من بلورات معدن الكلسيت أو الدولوميت ، وينشأ عن عمليات تحوّل شديدة ، وأحيانا يكون نقيًا ، ولكن الشوائب تضيف إليه رونقا وجمالا ، ويستعمل فى صناعة التماثيل وإقامة المبانى ، وفى تصميمات الديكور المختلفة ، وهو ... » .

☐ البلور . ☐ الرخام . ☐ البازلت .

١٧ ـ « مصطلح يشير إلى علم دراسة الصور ، استخدم للمرة الأولى فى القرن الثامن عشر ، لكشف ودراسة وتفسير التمثيل ، سواء أكان تمثيلا طبيعيًا أو رمزيًا ، وقد يطلق المصطلح بمعناه الواسع ، على فن التمثيل برسوم أو صور ، قد يكون لها معنى رمزى ، أو سطحى ، وهذا المصطلح هو ... » .

☐ فوتوجرافيا . ☐ بيلوجرافيا . ☐ أيقونوجرافيا .

١٨ ـ « سياسى بريطانى ، انتخب عضوا بمجلس العموم ، ووزيرا للخارجية ، واختاره تشرشل وزيرا فى وزارة الحرب العالمية الثانية ، فنجح فى ضم روسيا وأمريكا لجبهة القتال ، لتخفيف وطأة الهجمات الجوية الألمانية على (بريطانيا) ، وكان المحرّك الأوّل للعدوان الثلاثى الفاشل على مصر ، وهو .... » .

☐ أنطونى ايدن . ☐ أنطونى ناتنج . ☐ جون فوستر دالاس .

١٩ ـ « حشرة من فصيلة خاصة ، تعرف باسمها ، لها أربعة أزواج من الأعين ، ومن سطحها السفلى تخرج عدة زوائد للمس والمشى ، ومن أسفل مؤخرة الكتلة الخلفية ، تبرز المغازل ، وهى مراكز تكوين مادة الحرير ، التى تصنع منها نسيجها ، وتحصل بها على طعامها ، وهذا النسيج يستخدم فى صناعة بعض البصريات الدقيقة ، وهذه الحشرة هى ... » .

☐ دودة القز . ☐ العنكبوت . ☐ النحلة .

٢٠ ـ « متحف للفنون والآثار فى (باريس) ، بنى كقصر وحصن لفيليب الثانى ، حوالى عام ١٢٠٤ م ، وأعيد تعميره عام ١٥٤١ ، ويعود الفضل فى تحويله إلى متحف وطنى ، إلى (نابليون بونابرت) ، وهو يحوى أقساماً هامة ، للفن القديم والحديث ، ويحوز شهرة عالمية واسعة ، وهو متحف ... » .

☐ الفن الحديث . ☐ المقتنيات . ☐ اللوثر .

* * *

وكما يحدث فى كل مرة ، ينتهى اللقاء ..

ومع نهايته ، وعد بلقاء جديد ، فى كتاب قادم ، بعد أن تراجع الحلول فى نهايته هذا الكتاب ، وتعرف جواب السؤال التقليدى ..

هل أنت مثقف ؟!..

* * *

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

د . نبيل فاروق

١ - العميل ..

بدأ قرص الشمس رحلته اليومية نحو الأفق ، وراح يهبط فى بطء ، كعين تغلب صفرتها حمرتها ، ملقيا آخر خيوط الضوء الباهتة على مطار (تل أبيب) الحربى ، حيث تراصت المقاتلات الصغيرة ، من طراز (فانتوم ـ ١٥) ، واستعد الطيارون لمغادرة ممرات الهبوط والإقلاع ، فى حين اتجه طاقم الفنيين إلى الطائرات ، لإجراء عمليات الصيانة والمتابعة الدورية ، وانشغل عدد من الإداريين والضباط فى مراجعة التقارير الواردة ، ودراسة الخرائط الجديدة ..

وفى تلك اللحظة ، التى يتضاعف فيها النشاط ، وتتزايد الحركة ، ويقل التواجد الأمنى أو يرتبك إلى حد ما ، تحرك أحد الفنيين عبر الممر الطويل ، فى برج المراقبة الرئيسى ، فى خطوات واسعة واثقة ، وهو يحمل بعض قطع غيار المحركات الرئيسية ، على نحو يوحى بأنه فى طريقه إلى قسم الصيانة ، لتسليم أو استبدال شىء ما ، إلا أنه لم يواصل مسيرته حتى قسم الصيانة ، وإنما توقف لحظة ليتأكد من أن أحدا لا ينتبه إلى حركته ، ثم انحرف فى خفة إلى ممر آخر جانبى ، واندفع عبره لثلاثة أمتار ، قبل أن يتوقف أمام أحد الأبواب المغلقة فى إحكام ، ويخرج من جيبه أداة صغيرة ، دسها فى ثقب المفتاح ، وراح يعالج الرتاج فى سرعة ، حتى استجاب له ، فدفع الباب ، ودلف إلى الحجرة فى وثبة واحدة ، وأغلق بابها خلفه ، ثم اتجه

مباشرة إلى أحد الأدراج ، وراح يقلّب ما فيه من ملفات فى اهتمام ، قبل أن يتوقّف عند ملف بالتحديد ، انتزعه من مكانه ، ووضعه فوق المكتب المجاور ، وأخرج من جيبه آلة تصوير صغيرة ، وراح يلتقط صور صفحات الملف فى عناية ، حتى انتهى من تصويرها كلها ، فوضع آلة التصوير فى جيبه ، وأعاد الملف إلى موضعه فى عناية بالغة ، ثم غادر الحجرة ، وتلفّت حوله فى حذر ، واتجه عائدًا إلى الممر الرئيسى ، و ...

« ماذا تفعل هنا ؟!.. » .

انطلق السؤال بغتة من خلفه ، بصوت يجمع ما بين الدهشة والغضب والاستنكار ، فاستدار إلى مصدره فى سرعة ، ورأى أحد رجال الشرطة الحربية ، يسحب مسدسه من غمده ، ويندفع نحوه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ انتظر .

ولكن الرجل لم ينتظر ..

كان من المستحيل أن يخاطر بالوقوع فى قبضة الشرطة الحربية ، وهو يحمل فى جيبه آلة تصوير صغيرة ، بداخلها (ميكروفيلم) ، يحوى عددًا من الصور ، تكفى واحدة منها لإلقائه خلف القضبان ، حتى آخر العمر ، ما لم يلق مصرعه من شدة التعذيب داخل زنزانة رطبة ، فى أعماق السجن الحربى الإسرائيلى ..

لذا فقد التفت إلى الجندى ، وقال فى حدة :

ـ ماذا تريد منى ؟

رفع الإسرائيلى مسدسه ، قائلاً :

ـ ماذا كنت تفعل فى هذا الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ألقى الرجل ما يحمله فى وجهه ، ثم انقضّ عليه ، وهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، هاتفًا :

ـ ليس هذا من شأنك .

بوغت الإسرائيلى بهذا الهجوم غير المتوقّع ، ودفعته اللكمة إلى الوراء فى عنف ، ولكنه تماسك بقوة عجيبة ، وحاول أن يطلق النار على الرجل ، الذى أمسك معصمه ، ودفعه إلى أعلى فى قوة ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنك قوى الاحتمال .

انطلقت الرصاصة بدوى مخيف ، تردّد صداه فى المكان كله ، فغاص الرجل بقبضته فى معدة الإسرائيلى ، مستطردًا :

ـ ولكن حتى الثيران لها نقاط ضعف .

شهق الإسرائيلى ، وانثنى جسده كله إلى الأمام ، فحطّم الرجل أنفه بلكمة أخيرة ، ألقته فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها صفارات الإنذار فى المكان ، وراحت الأبواب تغلق آليًا ، مع نداء يتردّد بالعبرية ..

وبدا من الواضح أن الأمور قد تأزّمت للغاية ..

وأن الفرار لم يعد مضمونًا على الإطلاق ..

وفى سرعة ، اختطف الرجل مسدس جندى الشرطة الحربية الإسرائيلى ، وانطلق يعدو نحو باب المكان ، الذى يُغلق آليًا ، ووثب يتجاوزه فى مهارة ، قبل أن يلتقى مصراعاه ، ولكنه وجد

ثلاثة من الإسرائيليين يعدون نحوه ، وأحدهم يشير إليه ، صائحا :

ـ ألقوا القبض على هذا الرجل .

لم يكن هناك مجال للمناورة أو التظاهر ، وخاصة مع دوى صفارات الإنذار ، وما تصنعه من أعصاب متوترة ، وأوتار مشدودة ، فلم يضع الرجل وقتا ، وإنما رفع المسدس الذى اختطفه من الإسرائيلى ، وأطلق النار نحو الإسرائيليين الثلاثة بلا تردُّد ..

وأصابت رصاصته أحد الرجال ، وأطاحت به فى عنف ، إلا أن الرجلين الآخرين أطلقا رصاصاتهما بدورهما فى نفس اللحظة ..

واخترقت رصاصة ذراع الرجل ، وغاصت ثانية فى فخذه ، وعبرت الثالثة صدره وحطّمت أحد أضلاعه ، قبل أن تستقر داخل رئته اليمنى ..

وواصل الرجل إطلاق النار ، على الرغم من إصاباته ، وهو يعدو نحو منطقة تجمع الطائرات ، وأسقط رجلين آخرين ، إلا أن أكثر من عشرة رجال كانوا يطاردونه فى شراسة ، ورصاصاتهم تنطلق نحوه بلا هوادة ..

واخترقت رصاصة أخرى ظهر الرجل ، وخامسة كتفه ، فاندفع جسده إلى الأمام ، وسقط بين إطارات واحدة من طائرات (الفانتوم ـ ١٥) ..

وفى صرامة ، ارتفع صوت يقول بالعبرية :

ـ لا تطلقوا النار ، حتى لا نتلف الطائرات .. لقد أصابته رصاصات عديدة .. حاصروه فحسب ، وسينهار وحده حتما ، بين حين وآخر ..

لهث الرجل فى شدة ، وهو يستمع إلى العبارة ، وأدرك أن صاحبها محق تماما ، فمع كل ما أصابه من رصاصات ، كان من العجيب أن يحتفظ بوعيه ، ولكنه لن يلبث أن يسقط حتما ، مع ما يفقده من دماء ..

وعلى الرغم من دقة موقفه ، انحصر تفكيره كله فى ذلك (الميكروفيلم) ، داخل آلة التصوير ، وفى مدى أهمية ما يحويه من صور ومعلومات ، فأخرج الآلة من جيبه ، وانتزع منها (الميكروفيلم) ، وهو يلهث فى تهالك ، واستخدم آلته الصغيرة ، ليحُلّ إحدى المفصلات الدقيقة ، فى منطقة الإطارت ، ثم دفع داخلها (الميكروفيلم) ، وعاد يربطها فى إحكام ، وهو يبذل جهدا خرافيًا ، للسيطرة على توافقه العصبى ، والحفاظ على درجة من الوعى ، تسمح له بالمضى فى عمله ..

وكان من الواضح أنه يستمد قوته كلها من إصراره على إنقاذ (الميكروفيلم) ، إذ لم يكد يطمئن إلى أنه فى أمان ، داخل تلك المفصلة الصغيرة ، حتى تهاوت قوته كلها ، وانهار جسده دفعة واحدة ، وسقط فاقد الوعى ..

وفى بطء حذر ، وبعد أن لاحظوا توقّف جسده عن الوعى .. راح الإسرائيليون يقتربون من الرجل ، ومدافعهم الآلية مشهرة متحفزة بشدة ..

ولكن الرجل لم يبد حراكًا أو مقاومة ..
لم يبد أيًا منهما على الإطلاق ..

* * *

« عميل مصرى ؟.. » .

هتف رجل (الموساد) الإسرائيلى ، المسئول عن أمن المطار الحربى بالكلمة فى مزيج من الغضب والسخط والاستنكار ، وهو يقطع ممر المستشفى العسكرى فى (تل أبيب) فى خطوات عصبية سريعة ، ولوّح بيده فى حدة ، مستطردًا :

ـ وكيف تسلّل عميل مصرى إلى المطار الحربى ؟!.. أين كان رجال الأمن ؟!

تنحنح مساعده (زلفى) ، وهو يعدو خلفه ، قائلاً :

ـ إنه لم يتسلّل إلى هناك يا آدون (بيجال) .. إنه .. إنه ..

صاح به (بيجال يائيل) فى عصبية :

ـ إنه ماذا ؟ تحدّث .

كان قد بلغ حجرة الطوارئ ، التى يرقد داخلها ذلك العميل ، عندما تنحنح (زلفى) فى حرج ، وأجابه :

ـ إنه يعمل هناك ..

تجمّد (بيجال) فى مكانه ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وجحظتا حتى كادتا تبرزان من محجريهما ، قبل أن ينتفض فى عنف ، ويلتفت إلى مساعده بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ يعمل هناك ؟!

نطقها بأكبر قدر ممكن من السخط والاستنكار ، فتراجع (زلفى) أمام ثورته ، وارتبك أكثر ، وهو يجيب :

ـ نعم يا سيّدى .. لقد كان يعمل هناك باعتباره .. باعتباره .

لم يرق هذا التردُّد لـ (بيجال) ، فصرخ :

ـ باعتباره ماذا ؟

شحب وجه (زلفى) ، وازدرد لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب :

ـ باعتباره إسرائيليًا .

لو أن صاعقة هوت فجأة من السماء ، فى يوم صحو ، وانتخبت (بيجال يائيل) بالتحديد ، من بين ملايين الأحياء ، لتضرب رأسه بكل قوتها ، لما تركت فى نفسه ذلك الأثر ، الذى تركه جواب (زلفى) .

لقد امتقع وجه (بيجال) ، كما لو أنه لم يعد يحوى قطرة واحدة من الدم ، وجحظت عيناه حتى برزتا من محجريهما بالفعل ، وانفرج فاه على نحو عجيب ، واشرأب بعنقه كذكر أوز ، وظلّ على هذا الوضع لما يقرب من نصف دقيقة كاملة ، قبل أن يتمتم فى صعوبة ، وكأنما ينتزع الكلمات من حلقه انتزاعًا :

ـ إسرائيليًا ؟!..

وارتسم الذهول على كل لمحة من ملامحه ، وهو يتراجع ، ويلصق ظهره بباب حجرة الطوارئ ، مكرّرًا ؟!..

ـ باعتباره إسرائيليًا ؟!..

شعر (زلفى) بالقلق ، مع ذلك الانطباع العجيب ، الذى ملأ وجه رئيسه ، وتضاعف ارتباكه عشر مرات على الأقل ، وهو يغمغم :

ـ إنه يحمل هوية إسرائيلية ، باسم (رافائيل أعانوت) ،

ويعمل فى المطار الحربى منذ ما يقرب من العام ، ولولا إصابته لما ...

قاطعه (بيجال) بصيحة هادرة :

ـ منذ ما يقرب من عام ؟!

كان وجهه قد فقد امتقاعه ، واحتقن فى شدة ، وكأنما عادت إليه دماؤه ، مع كل ما تبقى فى جسده من دم ، وجسده يرتجف فى انفعال مخيف ، وهو يستطرد :

ـ هذا يعنى وجود ثغرة فى نظم الأمن .. ثغرة دفع المصريون من خلالها أحد عملائهم ، لينتحل شخصية إسرائيلية ، ويعمل فى صفوفنا .. بل والأدهى أنه التحق بالعمل فى مطار (تل أبيب) الحربى شخصيًا .. يالها من كارثة !

ثم استدار ، ودفع باب حجرة الطوارئ ، واندفع داخلها ، قائلاً :

ـ أين ذلك الجاسوس ؟

أشار إليه طبيب الحجرة بالصمت والهدوء ، وهمس وهو يشير إلى المصرى ، الذى رقد فوق فراش صغير ، وقد امتدت إليه عشرات الأنابيب والأسلاك الدقيقة ، لفحص حالته طوال الوقت :

ـ هاهو ذا .. .. ولكن حذار أن تبذل جهدًا زائدًا معه ، فربما يلقى مصرعه .

هتف (بيجال) فى حدة ، وهو يتجه إلى الفراش :

ـ فليذهب إلى الجحيم .

قالها ، وهزّ المصرى فى قوة ، فهتف الطبيب :

ـ هذه القسوة بالغة الخطورة .. الرجل مصاب بعدد من الرصاصات ، وتجاوز على الفور جراحة بالغة الخطورة ، وأى تعامل عنيف قد يؤدى إلى ...

قاطعه (بيجال) بصرخة كادت ترجّ المستشفى كله :

ـ قلت لك : فليذهب إلى الجحيم .

انعقد حاجبا الطبيب ، وتراجع بضع خطوات ، فى حين قال (بيجال) للمصاب فى غلظة عصبية :

ـ استيقظ يا رجل .. استعد وعيك ، وقل لى : ماذا كنت تفعل عندما انكشف أمرك ؟!.. ولماذا كنت تحمل آلة تصوير صغيرة خالية ؟!.. أجيب أيها اللعين .. أجب .

ظلّ المصاب مغلق العينين ، ساكنًا فى فراشه ، على الرغم من أمارات الألم ، التى ارتسمت على ملامحه ، فتدخّل الطبيب ، قائلاً فى صرامة :

ـ لا فائدة مما تفعل .. الرجل فاقد الوعى ، ولن يستعيده لمجرّد أنك صارم قاس بلا قلب .

صاح (بيجال) :

ـ لابد أن يجيب أسئلتى .

قال الطبيب فى حدة :

ـ مهما بلغت صرامتك ، فلن يمكنها أن تتجاوز قوانين الطبيعة .. كل ما يمكن أن يحدث هو أن تقتله قسوتك ، فتضيع معه كل الأجوبة ، التى تسعى إليها .. أهذا ما تريده أم ماذا ؟

انعقد حاجبا (بيجال) فى شدة ، ولاذ بالصمت بضع دقائق ، ثم لم يلبث أن سأل فى عصبية :

ـ متى يمكننى استجوابه ؟

أجابه الطبيب ، وهو يعقد ساعديه أمام صدره :

ـ بعد ساعة على الأقل ، عندما يستعيد وعيه بصورة طبيعية .

قال (بيجال) فى حدة :

ـ فليكن .. سيظل مساعدى أمام الباب طوال هذه الساعة ، ولن يسمح بدخول أو خروج شخص واحد ، حتى يستعيد هذا المصرى وعيه .. هل تفهم ؟

زفر الطبيب فى ضجر ، وقال :

ـ فليكن .. والآن ، وحتى تنتهى هذه الساعة ، هلاّ غادرتما الحجرة ، لنتمكن من مواصلة عملنا هنا .

انعقد حاجبا (بيجال) بشدة ، وقال لمساعده (زلفى) ، وهما يغادران الحجرة :

ـ هل سمعت ما قلته ؟!

أومأ (زلفى) برأسه إيجابًا ، وهو يغلق الباب خلفه ، فتطلّع الطبيب إلى الباب المغلق لحظة ، ثم التفت إلى المصاب ، وقال باللغة العربية فى قلق :

ـ (فتحى) .. أأنت بخير ؟!

فتح المصاب عينيه فى تهالك ، وهو يتمتم :

ـ ذلك الوغد كاد يعجّل بنهايتى .

ربّت الطبيب على كتفه ، قائلاً فى تعاطف :

ـ اطمئن يا صديقى .. سأبذل قصارى جهدى لإنقاذك ، ونقلك من هنا ، و ...

قاطعه المصاب :

ـ لا تضع الوقت باللّه عليك .. كلانا يعلم أن إصاباتى قاتلة ، وأننى لن أحيا لأكثر من ساعات معدودة .. دع عنك فكرة إنقاذى هذه ، واستمع إلىّ قبل فوات الأوان .

ثم تشبّث بمعطفه ، مستطردًا فى لهاث :

ـ (الميكروفيلم) .. لقد أخفيت (الميكروفيلم) .

ربّت الطبيب على كتفه مرة أخرى ، قائلاً فى إشفاق :

ـ استرح يا رجل .. حالتك الصحية لا تسمح بـ ...

قاطعه المصاب فى توتر :

ـ لقد أخفيته فى قائم الإطار ، للمقاتلة (ف ـ ٢١٠) .. أخبرهم فى (القاهرة) أن .. أن ..

تلاحقت أنفاسه فى عنف ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، فقال الطبيب فى قلق شديد :

ـ كفى يا رجل .. توقّف عن الحديث .. توقّف باللّه عليك .

تشبّث به المصاب أكثر ، وهو يقول ، وأنفاسه تتلاحق أكثر وأكثر :

ـ من الضرورى أن يسعوا للحصول عليه ، قبل أن .. قبل أن ...

ردّد الكلمة مرتين ، ثم أطلق شهقة قوية ، وتعلّق بمعطف الطبيب ، وجحظت عيناه فى قوة ، فاندفع (بيجال) و (زلفى) إلى الحجرة ، وهما يهتفان :

ـ ماذا حدث ؟!.. ماذا أصابه ؟!

ولم يكن الطبيب بحاجة لإجابة أى من السؤالين ..

لقد أتى الجواب أوضح مما ينبغى ..

أتى حاملا رائحة لا يمكن أن تخطئها أنف ..

رائحة الموت ..

* * *

٢ ـ المهمة ..

دوّى الانفجار فى قلب الصحراء ، وتطايرت الشظايا فى عنف ، متناثرة فى كل اتجاه ، وانطلقت صفارات الإنذار تعلن حالة الطوارئ ، فى نفس اللحظة التى برز فيها شاب فى زى رجال الصاعقة ، يحمل مدفعًا آليًا ، ويعدو بكل قوته ، وكأنما هو جزء من الشظايا المتطايرة ..

ومن بعيد ظهرت سيارة (جيب) ، تحمل على جانبها نجمة (داوود)(*) ، وهتف أحد الرجال الثلاثة داخلها ، وهو يشير إلى الشاب :

ـ هاهو ذا .

انطلق سائق (الجيب) نحو الشاب مباشرة ، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه سيارة عسكرية أخرى ، اتخذت الاتجاه نفسه ..

وكان سباقًا رهيبًا ..

الشاب يعدو بكل قوته ، فوق رمال الصحراء ، والسيارتان تطاردانه فى إصرار ، وفوهات مدافع العدو الآلية مصوّبة إليه فى تحفز ..

وانطلقت رصاصات المدافع الآلية نحو الشاب ، ولكن المسار المتعرّج الذى يتخذه ، والسرعة التى يعدو بها ، منعا إصابته فى هذه المرحلة ..

(*) شعار (إسرائيل) .

وزاد قائدا السيارتين من سرعتهما ، وتضاعف إصرارهما على اللحاق بالشاب ، الذى يجرى بسرعة مدهشة ، بالنسبة للأرض التى تحت قدميه ، متجهًا نحو تبة عالية ، تبعد بضع عشرات من الأمتار فحسب ..

وداخل إحدى السيارتين هتف رجل فى زى نقيب إسرائيلى ، يستحث سائقها :

ـ هيا يا رجل .. دقيقة واحدة ونظفر به .. هيا ..

ولم يكد يتمّ عبارته ، حتى برزت تلك الهليوكوبتر ، من خلف التبة ..

هليوكوبتر حربية مصرية ، من طراز صغير الحجم ، سريع الحركة ، بارع المناورة ، ارتفعت بغتة من خلف التبة ، واتجهت نحو الشاب ، الذى بات من الواضح أنه يعرف موضعها ، ويتجه إليها منذ البداية ..

وصرخ قائد فريق المطاردة الإسرائيلى :

ـ لا تسمحوا للهليوكوبتر باتتشاله .. أطلقوا النار نحوها أيضًا ..

ولم يكد يصدر الأمر ، حتى انهال سيل من الرصاصات على الهليوكوبتر ، التى أدرك قائدها دقة وحرج الموقف ، فأشار إلى الشاب هاتفًا :

ـ أسرع بالله عليك .. أسرع .. لن يمكننى الانتظار طويلاً .

ولكن الشاب أدرك بدوره أن الأمر صار أدقّ مما ينبغى ، وأنه حتى لو لحق بالهليوكوبتر ، فستدركهما رصاصات العدو حتمًا ، لذا فقد لوّح بمدفعه لقائدها ، هاتفًا :

ـ أسرع إلى ما خلف التبة .

اتسعت عينا قائد الهليوكوبتر فى دهشة ، وهو يهتف :

خلف التبة ؟!

صرخ فيه الشاب ، وهو يستدير لمواجهة السيارتين بمدفعه :

ـ قلت لك : خلف التبة .. هذا أمر .

وأمام الموقف الملتهب ، لم يسع قائد الهليوكوبتر سوى تنفيذ الأمر ، فارتفع بالطائرة مرة ثانية ، واتجه نحو التبة ، فى حين راح الشاب يطلق رصاصات مدفعه فى جرأة مدهشة على السيارتين ، حتى اضطرهما للانحراف عن مسارهما ، وقائدهما يهتف فى حنق :

ـ اللعنة !.. كيف يمكنه هذا ؟!

وكانت فرصة نادرة بحق ..

السيارتان انحرفتا عن مسارهما ، وتوقفتا موقتا عن إطلاق النار نحوه ، أو نحو الهليوكوبتر ، و ...

وبسرعة مدهشة ، استدار الشاب ، وانطلق يعدو صاعدا التبة خلف الهليوكوبتر ..

وأدرك قائد فريق المطاردة الإسرائيلى هذا ، فهتف برجاله :

ـ إنه يحاول الفرار .

ومرة أخرى ، انطلقت الرصاصات خلف الشاب والهليوكوبتر ، مما اضطر قائدها إلى المضى فى طريقه ، على الرغم من الشاب ، الذى واصل عدوه نحوها ، دون أن يطالبه بالتوقف لالتقاطه ، لأنه يدرك أن التوقف للحظة واحدة ، سيعنى القضاء عليهما معا ، دون أدنى شك ..

وعلى مسافة كبيرة ، وقف رجلان ، أحدهما فى زى عسكرى برتبة عقيد ، والثانى يرتدى ثيابا مدنية ، يراقبان المشهد عبر منظارين مقربين فى اهتمام ، وغمغم العسكرى :

ـ لن ينجح .

أجابه المدنى فى ثقة :

ـ بل سيفعلها .

هز العسكرى رأسه بعدم اقتناع ، وهو يقول :

ـ العدو فوق الرمال ليس بالأمر الهين ، فما بالك بصعود التبة ، واللحاق بالهليوكوبتر .

أجابه المدنى فى ثقة أكثر :

ـ سيفعلها .

هز العسكرى كتفيه ، ولم يحاول الاعتراض صراحة ، ولكنه فى قرارة نفسه ، كان واثقا من أن ما يحاول الشاب أن يفعله مستحيل ..

مستحيل تماما ..

ولكن الشاب كان يمتلك إصرارا يفوق أقصى الحدود .

وإرادة من فولاذ ..

وإصراره وإرادته صنعا من قدميه آلة رهيبة ، لا تدرك سوى الجرى فوق رمال الصحراء .

وبأقصى سرعة ..

لقد تجاوز الأمتار التى تفصله عن الهليوكوبتر ، التى لم تتوقف لحظة واحدة ، ثم علق مدفعه الآلى بكتفه ، و ...

وقفز ..

ومع قفزته ، اتسعت عيون الجميع دهشة وانبهارًا ..

حتى أولئك الذين يلعبون دور الإسرائيليين .

لقد بدا لهم لحظة ، وكأنه يطير فى الهواء ، قبل أن يتعلق بحاجز باب الهليوكوبتر ، ويصرخ فى قائدها :

ـ ابتعد .. ابتعد بأقصى سرعة يا رجل .

واتسعت العيون مرة أخرى ، وهى تتابع ابتعاد الهليوكوبتر ، والشاب يدفع جسده داخلها ، قبل أن يلوّح بقبضته فى ظفر ، ثم يرسم فى الهواء شعارًا عجيبًا ..

شعارًا يشبه رمزًا رياضيًا معروفًا ..

(فاى) ..

وهتف العسكرى مبهورًا :

ـ كنت على حق يا رجل .. لقد فعلها .

أما المدنى ، فقد انعقد حاجباه فى ضيق ، وهو يغمغم محدثًا نفسه :

ـ يا للسخافة !.. إنه لا يستطيع مقاومة رسم شعاره قط ، كلما انتصر فى معركة ما .. هذا الشاب سيكشف نفسه يومًا بحماقته هذه .

التفت إليه العسكرى ، يسأله :

ـ ماذا تقول ؟

رسم المدنى على شفتيه ابتسامة ، وهو يجيب :

ـ لا شىء .. كنت معجبًا بما فعله فحسب .

ربّت العسكرى على كتف المدنى فى حماس ، قائلاً :

ـ دعنى أهنئك يا (نسيم) .. أخيرًا عثرت على امتداد حقيقى لك .. إنه يذكرنى بشبابك ، أيام كنا نعمل معًا ، فى القوات الخاصة .

ارتسمت على شفتى رجل المخابرات (نسيم) ابتسامة حقيقية هذه المرة ، وهو يقول فى زهو وارتياح :

ـ لقد دربته بنفسى .

ربّت العسكرى على كتفه مرة أخرى فى حرارة ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. ومن يصلح لهذا سواك ؟!

ثم سأله فى اهتمام :

ـ ولكن قل لى : هل أصبحت المخابرات أكثر ميلاً للأعمال العنيفة ، فى هذه الأيام ؟!.. المفترض أنها مجال لصراعات العقل وحدها ..

هزّ (نسيم) كتفيه ، وقال :

ـ المخابرات مجال لكل أنواع الصراعات بلا استثناء .. كلٌ يأتى فى موضعه ، عندما تقتضى الأمور ..

أومأ العسكرى برأسه متفهمًا ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. أذكر أنكم استعنتم ذات مرة برجال الضفادع البشرية فى (أبيدجان)(*) .. أليس كذلك ؟

أجابه (نسيم) بإيماءة من رأسه ، وشرد بصره متمتمًا ، وكأنه يستعيد ذكرى قديمة :

(*) (أبيدجان) : عاصمة جمهورية (ساحل العاج) (كوت دى فوار) .

ـ بلى .. كانت عملية من طراز خاص للغاية(*) .

ثم تعلق بصره بالهليوكوبتر ، التى تتجه نحوهما ، وهو يتابع :

ـ ولكنها ليست الأخيرة ، فهناك مهمة أخرى من طراز خاص للغاية ، تنتظر هذا الشاب .

سأله العسكرى فى اهتمام :

ـ هل أصبح مؤهلا للقيام بالمهام الخاصة ؟

ابتسم (نسيم) ، قائلا :

إنها ليست أول مهمة له .

ارتفع حاجبا العسكرى ، هاتفا :

ـ حقا ؟!

ثم عاد يهز رأسه ، مستطردا :

ـ كان ينبغى أن أدرك هذا .

وانتقلت ابتسامة (نسيم) إليه ، وهو يتابع :

ـ هل تعلم يا (نسيم) لو لم تظفروا بهذا الشاب فى المخابرات العامة ، لقدمت طلبا لإلحاقه بالقوات الخاصة .

التفت إليه (نسيم) بابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ وماذا لو أخبرتك أننا استولينا عليه من القوات الخاصة بالتحديد ..

(*) بعد احتلالها لصحراء (سيناء) ، أرادت (إسرائيل) أن تثبت سيطرتها على المنطقة ، عن طريق البدء فى استخراج البترول منها ، واستقدمت فى سبيل ذلك حفارا كنديًا ، تربص له رجال مخابراتنا ، وأعدوا خطة لنسفه ، قبل أن يصل إلى (إسرائيل)، ونجحت الخطة بالفعل ، ولم يصل الحفار أبدًا إلى هناك .

ارتفع حاجبا العسكرى فى دهشة ، وهتف :

ـ من القوات الخاصة ؟!.. هل تعنى أن هذا الشاب كان أحد رجال الكوماندوز المصرى يوما ؟!

أومأ (نسيم) برأسه إيجابا ، وقال :

ـ نعم .. وأنت قمت بتدريبه بنفسك ، قبيل حرب أكتوبر .

ارتفع حاجبا العسكرى بدهشة أكثر ، قبل أن ينعقدا فى قوة ، وهو يردد :

ـ دربته بنفسى ؟!

قالها ، وهو يعتصر ذهنه بشدة ، محاولا تذكر شاب عمل معه فى أحد الأيام ، بكل هذه المهارات ، قبل أن يغمغم :

ـ قبيل حرب أكتوبر كانت لدينا كتيبة كاملة من الموهوبين فى هذا المضمار ، ولكننى أذكر منها شابا بارعا ، أثبت تفوقا إضافيًا ، كان اسمه ...

قاطعه (نسيم) فى حزم :

ـ إنه هو على الأرجح .

حدق العسكرى فى وجهه لحظة بدهشة ، ثم لم يلبث أن هز رأسه نفيا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ مستحيل !.. تلك الكتيبة لقيت مصرعها كلها ، فى فخ إسرائيلى ، فى أول أيام الحرب .

قال (نسيم) :

ـ فيما عدا هو .

انعقد حاجبا العسكرى أكثر ، وقال فى شىء من التوتر :

ـ مستحيل !.. التقارير الرسمية كلها أكدت أن ..

أشار إليه (نسيم) بالصمت ، وهو يتابع هبوط الهليوكوبتر ، قائلاً :

ـ إنها قصة طويلة معقدة ، سأرويها لك فيما بعد .

حافظ العسكرى على انعقاد حاجبيه ، ولاذ بالصمت مضطرًا ، وشد قامته فى وقفة عسكرية صارمة ، عندما اندفع الشاب نحوهما من الهليوكوبتر ، وأدى التحية العسكرية فى احترام ، قائلاً :

ـ تمت المهمة بنجاح يا سيدى .

أومأ العسكرى برأسه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين قال (نسيم) :

ـ لقد تابعت ذلك التدريب الحى بنفسى ، وأعتقد أنك أنجزته كما ينبغى ..

ثم انعقد حاجباه ، وهو يستدرك فى صرامة :

ـ فيما عدا خطأ واحدًا .

بدا اهتمام قلق على وجه الشاب ، وهو يقول :

ـ أى خطأ ؟!

لوح (نسيم) بسبابته فى الهواء ، قائلاً :

ـ ذلك الشعار الذى رسمته فى الفراغ .

احتقن وجه الشاب ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدى ، ولكننى ..

قاطعه (نسيم) فى حدة :

ـ ولكنك لم تستطع مقاومة هذا .. أليس كذلك ؟

صمت الشاب لحظة ، ثم هز كتفيه ، دون أن يتكلم ، فتنحنح العسكرى ، وقال :

ـ لا بأس يا (نسيم) .. الشاب أبلى بلاءً حسنًا ، ويستحق التقدير لا اللوم والعتاب .

التفت الشاب إلى العسكرى ، وقال فى امتنان :

ـ أشكرك يا سيدى .. الواقع أننى ..

توقفت عبارته بغتة فى حلقه ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحدق فى وجه العسكرى ، وانطلقت فى عقله بغتة ذكرى قديمة ، فى أعمق أعماق مخه ..

« المقاتل الحق لا يثنيه جهد عن الوصول إلى مأربه .. » .

عبارة تألقت فى عقله بغتة ، حاملة صوت ذلك العقيد ، الذى يقف أمامه ، وارتسمت معها صورة له مع فارق جوهرى ..

لم تكن رتبته تتجاوز الرائد ..

وكان ذلك فى يوم ما ..

أول يوم قفز فيه بمظلة من طائرة حقيقية .

وراحت الصورة تتكون وتتضح فى سرعة ، على الرغم من الضباب الباهت ، الذى يحيط بها من كل جانب ..

الطائرة تنطلق محلقة فوق الصحراء الغربية ، والرائد يدير عينيه فى وجوه الجميع ، قائلاً فى حزم :

ـ نسبة الخطر لا تتجاوز العشرة فى المائة يا رجل ، ولكن فى أذهانكم ، دعوها تنخفض إلى خمسة فى المائة ، أما فى قلوبكم ، فلتكن صفرًا .

كان يشعر أيامها بحماس جارف ، وينتظر لحظة القفزة الأولى فى شوق ، لذا فقد تفجّر حماسه ، عندما أشار إليه الرائد بالتحديد ، قائلا :

ـ لا أريد منك أن تتردّد لحظة واحدة .

لحظتها أجاب فى حسم :

ـ مطلقا يا سيّدى .

ثم أضىء مصباح الاستعداد ، ونهض الجميع فى تأهُب ..

وكان هو فى أوّل الصف ..

وانطلق النداء ..

« اقفز .. » .

وقفز ..

« إلى أين ذهبت ؟!.. » .

نطق (نسيم) العبارة فى حزم ، يشوبه شىء من القلق ، وقد أدرك أن ذاكرة الشاب قد انطلقت من عقالها لحظة ، وكادت تستعيد تاريخه القديم ..

ولقد أتى تدخّله فى الوقت المناسب تمامًا ..

لقد انتفض الشاب مع العبارة ، واستعاد وقفته العسكرية الصارمة ، وهو يقول :

ـ لا شىء يا سيّدى .. أنا هنا .

رمقه (نسيم) بنظرة عميقة ، وكأنما يحاول أن يستشف ما يدور فى أعماقه ، قبل أن يقول :

ـ عظيم .. اتبعنى .

اختلس الشاب نظرة أخرى إلى العقيد ، ثم تبع (نسيم) فى خطوات سريعة ، بعد أن أدى التحية العسكرية ، فردّ العقيد تحيته ، وتبعه ببصره ، حتى اختفى مع (نسيم) ، داخل السيارة المدنية التى تنتظرهما ، والتى انطلق بها سائقها على الفور ، ثم ابتسم مغمغمًا :

ـ يالك من محظوظ يا (نسيم) !

أما (نسيم) نفسه ، فقد ظلّ صامتًا بضع لحظات ، وهو يجلس إلى جوار الشاب ، فى المقعد الخلفى للسيّارة ، ثم ضغط زرًا إلى جواره ، فارتفع من مؤخرة المقعدين الأماميين حاجز مزدوج ، عزلهما عن السائق تمامًا ، وهنا التفت إلى الشاب ، قائلا :

ـ كنت بارعًا فى هذه المناورة بحق .

أجاب الشاب فى هدوء :

ـ أشكرك يا سيّدى .

كانت هناك نظرة تساؤل واضحة ، تطلّ من عينيه ، لأنه ليس من المعتاد أن يأتى (نسيم) بنفسه ، ليلتقطه من أرض التدريب ، ولقد انتبه (نسيم) إلى هذه النظرة ، ولكنه تظاهر بأنه حتى لم يلمحها ، وهو يقول :

ـ لقد راجعت نتائجك فى الآونة الأخيرة ، وكلها مرضية إلى حد كبير ، وبالذات إجادة اللغة العبرية ، فهذا ضرورى للغاية ، بالنسبة لمهمتك الجديدة .

انعقد حاجبا الشاب ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتابع (نسيم) :

ـ المطلوب منك هذه المرة ، هو أن تستعيد (ميكروفيلم) ، أخفاه أحد عملائنا السابقين فى مكان داخل أرض العدو ، وهذا (الميكروفيلم) يحوى معلومات بالغة الأهمية والخطورة ، خاصة بالشفرة المستخدمة فى سلاح الطيران الإسرائيلى ، ولابد من استعادته بأى ثمن .

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، وهو يدرك جيدًا ما تعنيه عبارة (بأى ثمن) هذه ..

يدرك أنه لا ينبغى معها أن يبخل بأى جهد ، وأن يبذل روحه نفسه ، لو اقتضى الأمر ، فى سبيل تحقيق الهدف ..

ولم يكن هذا يقلقه قط ..

كل ما ملأ رأسه واهتمامه ، فى تلك اللحظة ، هو سؤال واحد .

سؤال أفصح عنه قائلاً :

ـ وأين أخفى العميل ذلك (الميكروفيلم) يا سيّدى ؟

صمت (نسيم) لحظة ، ثم أجاب فى حزم واقتضاب :

ـ فى المطار .. مطار (تل أبيب) الحربى .

وانعقد حاجبا الشاب ..

انعقدا فى شدة ..

* * *

« لقد عبرنا منطقة الممرّات .. » .

ارتفع صوت قائد الطائرة المصرية بهذه العبارة ، التى بدت أكثر وضوحًا داخل الفراغ الخالى ، إلا من (نسيم) ، الذى ارتدى حلة تدريب داكنة ، و (فاى) ، الذى اختفى جسده داخل معطف مموّه ، وحمل مظلته خلف ظهره ، فالتفت الأوّل إلى الثانى ، قائلاً :

ـ ستقفز من الطائرة بإذن الله ، عند منطقة (وادى العريش) ، بالقرب من (القصيمة) ، وهناك ستلتقى بيدوى يعمل لحسابنا اسمه (صالح) ، وسيتولّى هو عملية نقلك إلى (بئر سبع) ، ومنها ستتجه إلى (تل أبيب) ، حيث تبدأ مهمتك .

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، وسأل فى صوت هادئ :

ـ أليس من الخطر أن نتوغّل فى (سيناء) إلى هذا العمق ؟

أدهش ذلك الهدوء العجيب (نسيم) ، وأثار إعجابه إلى حد كبير ، ولكنه ـ تبعًا لطبيعته الصارمة ـ أخفى هذا فى أعماقه ، وحافظ على ملامحه الجافة ، وهو يجيب فى حزم :

ـ (سيناء) .. مصرية ، برغم أنف الجميع .

وصمت لحظة ، ثم استطرد بابتسامة باهتة :

ـ أضف إلى هذا أن قائد الطائرة خبير فى تفادى محطات الرادار هنا .

أومأ الشاب برأسه متفهمًا ، ثم سأل بنفس الهدوء :

ـ هل سيزودنى (صالح) هذا بالسلاح اللازم ؟

هزّ (نسيم) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ كلاّ .

بدا الضيق على وجه الشاب ، فتابع (نسيم) :

ـ وجود سلاح معك أمر بالغ الخطورة ، فى هذه المرحلة ، فالمفترض أنك بدوى ، تحمل هوية مصرية ، وبطاقة مرور من سلطات الاحتلال ، وهذا يجعلك موضع شبهات إلى حد ما ، وربما طرأ برأس أحدهم أن يفتشك ، فماذا لو عثر على السلاح معك عندئذ ؟!

ثم ربّت على كتفه ، مستطردًا :

ـ ولكن اطمئن .. ستحصل على سلاح فور وصولك إلى (تل أبيب) .

ارتسمت على زاوية فم الشاب ابتسامة شاحبة ، وهو يتمتم :

ـ أشكرك يا سيّدى .

لاذ كلاهما بالصمت طويلاً ، بعد عبارته المقتضبة هذه ، ولم يتبادلا كلمة واحدة ، حتى أضىء مصباح الاستعداد ، وارتفع صوت الطيّار ، وهو يقول :

ـ وصلنا إلى (وادى العريش) ، وسنبلغ منطقة الهبوط بعد دقائق معدودة .

وعندئذ ربّت (نسيم) على كتف الشاب فى حماس ، قائلاً :

ـ استعد يا بطل .

نهض الشاب فى حزم ، وشدّ أحزمة المظلة فى قوة ، واتجه نحو باب القفز ، وتعلّق بصره بالمصباح ، فى حين راح قلب (نسيم) يدق فى قوة ، وكأنه هو الذى يستعد للقفز ..

ثم صاح الطيّار :

ـ الآن ..

ومع صيحته ، تحوّل لون المصباح من الأحمر إلى الأخضر ، فهتف (نسيم) :

ـ على بركة الله .

وقبل أن تكتمل صيحته فعليًا ، كان الشاب قد قفز ..

وخفق قلب (نسيم) فى قوة أكبر ، وهو يتابع هبوطه ، فى حين قال الطيّار ، فى بساطة من اعتاد مثل هذه الأمور :

ـ هل نستعد للعودة ؟

صمت (نسيم) لحظة ، ثم لم يلبثْ أن اعتدل ، وأجاب فى حسم :

ـ نعم .. فلنعد إلى الوطن .

قالها وعقله وقلبه متعلقان بالمهمة التى يتجه إليها ذلك الذى قفز فى تلك البقعة من الأرض ..

أرض العدو ..

* * *

التقى حاجبا العريف الإسرائيلى (يهو) وبدا عليه الغضب ، وهو يمط شفتيه ، قائلاً لزميله (دافيد) فى حنق :

ـ لماذا اتخذت هذا الطريق .. المفترض ألا تحيد الدورية عن مسارها قط ؟

ابتسم (دافيد) فى خبث ، وهو يقول :

ـ لا تتعجّل يا رجل .. ربما لو انتظرت نصف ساعة أخرى ، لشكرتنى فى حرارة على تغيير مسار الدورية الليلة .

قال (يهو) فى عصبية :

ـ أشكرك على ماذا ؟.. تغيير مسار الدورية جريمة عسكرية ، وربما نخسر مستقبلنا كله بسببها .

قال (دافيد) فى استهتار ، وهو يوقف السيارة :

ـ لن نخسر شيئًا .. اطمئن .. لا أحد سيشعر بأننا قد غيرنا مسار الوردية ، ولو انتبه النقيب إلى هذا ، وأنا أستبعد ذلك تمامًا فى ليلة السبت ، سندّعى أننا ضللنا طريقنا فحسب .

هتف (يهو) :

ـ ضللنا طريقنا ؟!.. عذر أقبح من ذنب يا رجل .. إننى أفضّل أن أعترف بتغيير المسار ، على أن يتصوّر النقيب أننى ، وبعد سبع سنوات من العمل فى (سيناء) ، قد ضللت طريقى داخل (وادى العريش) .

لم يبد على (دافيد) أدنى قدر من الضيق ، وهو يقول :

ـ ولكن الأمر يستحق هذا .

ثم مال على أذنه ، مستطردًا فى جذل :

ـ ستأتى (راشيل) وزميلتها لمقابلتنا هنا .

هتف (يهو) فى انبهار :

ـ (راشيل) .. أتقصد تلك الفاتنة ، ذات الشعر الأحمر ؟!.. هل ستأتى إلى هنا حقًا ؟!

غمز (دافيد) ، مجيبًا :

ـ نعم .. وستصطحب معها زميلتها الشقراء ، ذات الـ ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، فهتف به (يهو) ، وهو يلتفت إلى حيث تسمّرت عيناه :

ـ هل وصلتا ؟!

لم يكد يلقى سؤاله ، حتى وقع بصره على ذلك الشىء ، الذى انتبست له الكلمات فى حلق زميله ..

وكان ذلك الشىء عبارة عن مظلة هبوط .

مظلة هبوط تقترب من أرض (سيناء) ، وفى نهايتها بطلنا .. (فاى) ..

وفى حركة خاطفة ، ودون أدنى قدر من التروّى والتفكير ، اختطف (يهو) بوق جهاز الاتصال اللاسلكى ، وضغط زره ، وهو يصرخ :

ـ جاسوس .. جاسوس فى المنطقة ..

واشتعلت نيران الخطر فى لحظة واحدة .

* * *

٢ - الصحراء ..

تحرك رجل المخابرات الإسرائيلى (بيجال يائيل) ، فى خطوات واسعة ، عبر ممرات برج المراقبة الرئيسى ، فى مطار (تل أبيب) الحربى ، وهو يقول فى عصبية :

- من المستحيل أن يكون كل شىء على ما يرام هنا .. ما الذى كان يفعله ذلك العميل المصرى إذن ؟!

أجابه مساعده (زلفى) ، فى شىء من التردُّد :

- ربما لم يجد الوقت ليفعل ما جاء من أجله .

هتف (بيجال) :

- مستحيل !

ثم لوَّح بذراعه كلها ، مضيفًا :

- وحتى لو افترضنا هذا ، فكيف تفسِّر وجود آلة تصوير صغيرة خالية فى جيبه ؟! لماذا يحمل آلة تصوير بدون (ميكروفيلم) ؟!

صمت (زلفى) لحظات ، وهو يعتصر ذهنه ، محاولا إيجاد جواب ، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه ، متمتمًا :

- لست أدرى .

توقَّف (بيجال) بغتة ، حتى كاد مساعده يرتطم به ، وهو يقول فى حدة :

- أما أنا ، فيمكننى أن أتخيَّل الأمر .

فقد (زلفى) توازنـه ، مع ذلك التوقُّف المباغت ، وكاد يسقط

على وجهه ، لولا أن ألصق راحته فى الجدار ، ولهث من فرط الانفعال ، وهو يغمغم مجاملا :

- حقًا ؟!

أدار (بيجال) عينيه فيما حوله ، وقال وكأنه يتخيَّل ما حدث :

- لقد تسلَّل ذلك العميل إلى هنا ، مستغلاً لحظة تغيير النوبات ، ثم عبر هذا الممـر ، الذى سيقوده إلى ثلاث حجرات لا غير .. مخزن قطع الغيار ، ومكتب الضابط المناوب ، وحجرة الوثـائق .. ولا ريب فى أنه قد اتجه إلى الأخيرة بالتحديد .

غمغم (زلفى) :

- ولكنها كانت مغلقة ، بعد إلقاء القبض عليه !

تجاهل (بيجـال) هـذا التعليق تمامًا ، وهو يواصل حديثـه ، معبرًا عنه بحركات يديه :

- ولأنـه مدرَّب جيدًا ، فقد عـالج الرتـاج في مهارة ، حتى استجاب له ، ثم دخل إلى الحجرة ، وأخذ أحد الملفات ، واستخدم آلة التصوير ليلتقط له بعض الصور ، ثم أعاده إلى موضعه ، وغادر الحجرة .

هزَّ (زلفى) كتفيه ، متمتمًا :

- تفسير أنيق ، ولكن ..

قاطعه (بيجال) بنفس التجاهل ، وهو يتابع :

- ولمحه جندى الشرطة الحربية ، وكان عليه أن يهرب ، وأن ينقذ ذلك (الميكروفيلم) فى آلة التصوير بأى ثمن ، ولكن الرجال طاردوه ، وأطلقوا عليه النـار ، فانتزعه من الآلـة ، وأخفاه فى مكان ما ..

واتعقد حاجباه فى شدة ، عندما بلغ هذه النقطة ، وأدار عينيه فيما حوله ثانية ، وهو يكرّر فى صوت خافت متوتر :

ـ فى مكان ما هنا ..

تنهّد (زلفى) ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ لقد فتشنا المكان كله ، ولم نعثر على أدنى أثر لأى (ميكروفيلم) .

ضرب (بيجال) الجدار بقبضته ، وهو يقول فى حدة :

ـ ولكنه هنا حتمًا .. لا يمكن أن يكون قد ذهب بعيدًا .

وعاد حاجباه يلتقيان ، وهو يدير عينيه فى المكان فى توتر شديد ، قبل أن يستطرد :

ـ فليكن .. واصلوا البحث طوال الوقت ، وأريد إجراء تحقيق واسع النطاق بشأن نجاح ذلك العميل فى الوصول إلى هنا ، وفى تجاوز إجراءات الأمن ، وانتحال شخصية (إسرائيلى) .. أريد معرفة كيفية حصوله على الهوية ، وكيف لم ينكشف أمره ، عندما تم إلحاقه بالعمل هنا ، وهل له معاونون داخل المطار ؟!.. أريد معرفة أجوبة كل هذه الأسئلة ، وأى سؤال آخر يمكن أن يخطر ببالى فى أثناء التحقيق .. هل فهمت ؟!.. كما أريد إبلاغى بأية حوادث غير مفهومة ، أو أية أحداث يمكن تأويلها على نحو يوحى بالتجسُّس ، ومراقبة كل الحدود ، ورفع درجة الأمن والاستعداد فى المطار إلى الحد الأقصى .

توقّف عن الاستطراد ، وقد احتقن وجهه ، واحمرّت عيناه ، ثم أشار بيده ، وهو يلتقط أنفاسه ، قبل أن يضيف :

ـ المهم ألا تتنفّس حشرة ، يمكن الشك فى احتمال عملها لحساب المصريين ، دون أن يتم إبلاغى بعدد أنفاسها .. هل تفهم ؟

أومأ (زلفى) برأسه إيجابًا ، وهو يتمتم بأنفاس مبهورة :

ـ أفهم يا سيّدى .. أفهم .

أشار (بيجال) بيده ، قائلاً :

ـ هيا .. اذهب لتعلن كل هذه الأوامر على الفور .

انطلق (زلفى) لتنفيذ الأمر ، فى حين عاد (بيجال) يعقد حاجبيه فى شدة ، ويدير عينيه فى المكان ، وهو يتمتم :

ـ إنه فى مكان ما حتمًا .

ولكن عقله لم يتخيّل ذلك المكان فعليًا ..

لم يتخيّله قط ..

* * *

كان (فاى) يهبط بمظلته نحو رمال (سيناء) ، عندما لمح أضواء سيارة الجيب العسكرية ، التى تنطلق نحوه مباشرة بأقصى سرعة ، فاتعقد حاجباه فى شدة ، إذ كان من المفترض أن تكون تلك المنطقة خالية من أية دوريات عسكرية ، فى الوقت المحدود لهبوطه فيها ، طبقًا لما قرّره خبراء المخابرات ، بناء على جداول الدوريات ، التى حصل عليها عملاؤها ..

من أين أتت تلك السيارة إذن ؟!

لم يكن هناك وقت لإجابة السؤال ، أو حتى للهبوط على نحو طبيعى ، على أرض (سيناء) ، فبالسرعة التى تنطلق بها السيارة نحوه ، والسرعة التى تهبط بها المظلة ، سيصل إلى الرمال ليجد السيارة ورصاصات أصحابها فى انتظاره ..

والمؤسف أنه لا يحمل أسلحة ..

أية أسلحة ..

إنه يحمل فقط عقله وإرادته ..

وفى موقف كهذا ، كانت تلك أسلحة كافية ..

ففى سرعة ، ودون إضاعة لحظة واحدة ، حل الشاب حزامى مظلته ، وترك جسده يهوى فى الفضاء ، من ارتفاع ستة أمتار ، ليرتطم بالرمال فى عنف ، ويتدحرج فوقها فى قوة ، قبل أن يستقر جسده ، مع آلام مبرحة ، تسرى فى كيانه كله ..

ولكنه لم يستسلم لتلك الآلام ..

لقد هب واقفا على قدميه ، فى نفس اللحظة التى هتف فيها (يهو) ، وهو يشير إليه فى توتر :

ـ ها هو ذا .. الحق به يا (دافيد) .

قالها ، وهو يصوب مدفعه الآلى إلى الشاب ، ويطلق رصاصاته فى سخاء ..

وانطلق الشاب يعدو ، فوق رمال الصحراء ، ومن خلفه تدوى الرصاصات بدوى مخيف ، امتزج بهدير محرك السيارة ، التى تنطلق خلفه بأقصى سرعتها ..

وكان من الواضح أنه ، مهما بلغت سرعة الشاب ، فلن يمكنه الفرار من السيارة قط ، و ...

وفجأة ، انثنى جسد الشاب إلى الخلف ، واندفع إلى الأمام فى عنف ، وانطلقت من حلقه صرخة قوية ، قبل أن يسقط على وجهه فوق الرمال ، وتهمد حركته تماما ..

وفى ظفر ، هتف (يهو) :

ـ أصبته ... لقد أصبته ..

هتف بها ، وانطلقت من حلقه ضحكة قوية مجلجلة ، ولوح بمدفعه الآلى ، فى حين أوقف (دافيد) السيارة ، على مسافة متر واحد من الشاب ، وقال فى حماس :

ـ أرأيت يا رجل .. لقد أصبحنا بطلين بتغيير مسارنا هذا .

قفزا من السيارة معا ، واتجها نحو الشاب ، و (يهو) يقول فى حذر :

ـ عجبا !.. أين أصابته الرصاصات بالضبط ؟.. لست أرى أثر الدماء ، أو الـ ..

قبل أن يتم عبارته ، فوجئ بالشاب يثب واقفا على قدميه ، ويركل المدفع من يده ، قائلا :

ـ هذا أمر طبيعى .

وفى نفس اللحظة ، التى طار فيها المدفع من قبضة (يهو) ، هوى الشاب على فكه بلكمة كالقنبلة ، مستطردا :

ـ لأن الرصاصة لم تصبنى قط .

كانت ضربات الشاب قوية وعنيفة للغاية ، إلا أن (يهو) احتملها كجدار من الصلب ، وأطلق صرخة غاضبة ثائرة ، وهو ينقض عليه ، ويحيط وسطه بذراعيه ، ثم يدفعه أمامه ، وهو يصرخ ويصرخ :

ـ لا أحد يفعل هذا بى .. لا أحد ..

شعر الشاب بقوة خصمه ، الذى حمله كما لو كان طفلا

صغيرًا ، وراح يدفعه أمامه فى شراسة ، وحاول أن يخلّص ذراعيه منه ، إلا أن الإسرائيلى كان يحيطهما بساعدين كالفولاذ ، عكف على تنميتهما وتقويتهما لسنوات وسنوات ، ويصرخ :

ـ ستدفع الثمن أيها الجاسوس .

ثنى الشاب ركبته ، وغاص بها فى معدة (يهو) ، الذى أطلق صوتًا عجيبًا ، أشبه بصرخة قرد غاضب ، وزاد من ضغط ساعديه على ذراعى الشاب ووسطه ، ثم دفع رأسه إلى الخلف ، وضرب بها جبهته فى عنف ..

ودار رأس الشاب مع عنف الضربة ، وشعر بألم شديد فى جبهته ، وأدرك أن ضربتين أخريين تكفيان ، ليشجّ رأسه بلا رحمة ، فانطلق عقله يعمل فى سرعة مذهلة ، بحثًا عن مخرج من هذا المأزق ..

وفى حركة مرنة ، دفع قدميه بين ساقى الإسرائيلى ، ثم فتحهما عن آخرهما ، فانفرج ساقا الإسرائيلى بغتة ، واتسعت عيناه فى دهشة ، وهو يفقد توازنه ، ويواصل جسده اندفاعه ، بفعل القصور الذاتى ، فيسقط مع الشاب على الرمال .

ولكن الشاب كان مستعدًا لهذه السقطة ، فلم يكد ظهره يلامس الرمال ، حتى ثنى ركبتيه ، ودفع قدميه فى معدة (يهو) ، ثم فرد ساقيه فى حركة سريعة مباغتة ..

وعلى الرغم من قوته ، فقد (يهو) توازنه تمامًا ، بتلك الحركة المفاجئة ، ووجد جسده يدور فى الهواء ، قبل أن يرتطم رأسه بالرمال ، ويدور ليسقط على ظهره ..

وفى نفس لحظة سقوطه ، فرد الشاب جسده فى مرونة يحسد عليها ، وقفز واقفا على قدميه ، ثم ركل الإسرائيلى فى أنفه وفكه ومعدته ، ثلاث ركلات سريعة متتالية ، شهق لها الرجل ، وتأوه ، وتفجرت الدماء من أنفه وفمه تغرق وجهه ، قبل أن تأتى الركلة الأخيرة ، لتفقده وعيه تماما .

وبأقصى سرعة ، استدار (فاى) ليواجه الإسرائيلى الاخر (دافيد) ..

وأطلق عقله صرخة تحذير ..

فعلى مسافة ستة أمتار منه ، وفى حزم شديد ، وغضب يفوق الحد ، وقف الإسرائيلى (دافيد) يصوب إليه مدفعه الآلى ، ويضغط الزناد ، و ...

وانطلقت الرصاصات فى قلب الليل ..

* * *

لم يكن هناك مكان واحد ، يمكن أن يختبئ فيه الشاب ، من رصاصات الإسرائيلى (دافيد) : فكلاهما يقف فى قلب الصحراء ، بكل فراغها واتساعها ، والإسرائيلى وحده يحمل سلاحا ، من العسير أن تخطئ رصاصاته هدفها ، من مسافة قصيرة كهذه ..

لكل هذا ، لم يكن لدى الإسرائيلى أدنى شك ، فى أنه ظافر بخصمه لا محالة ..

ولكن فجأة ، انقلبت الأمور رأسا على عقب ..

فجأة انطلق خنجر يشق الهواء ، لينغرس فى منتصف ظهر الإسرائيلى ، الذى جحظت عيناه ، وأطلق شهقة قوية ، ومال

جسده كله إلى الخلف بحركة حادة ، فانطلقت رصاصاته كلها فى الهواء ، قبل أن يهوى جثة هامدة ، ويندفن وجهه فى الرمال التى احتلها قادته ..

رمال (سيناء) ..

وقبل أن يبدى الشاب دهشته ، أو يتساءل عما حدث ، برز فجأة رجل متين البنيان ، عريض الفك والكتفين ، أسمر البشرة ، يرتدى زيا بدويا ، وأسرع ينتزع خنجره من ظهر الإسرائيلى ، قائلا فى توتر :

- معذرة لأننى تأخرت عن موعدنا ، ولكن من حسن الحظ أننى وصلت فى الوقت المناسب .

قال الشاب فى اهتمام :

- أنت (صالح) .. أليس كذلك ؟

صافحه البدوى ، قائلا :

- بلى .. وسيارتى تنتظرنا ، على بعد مائتى متر من هنا .. أسرع .

انطلقا يعدوان معا ، فوق رمال الصحراء ، و (صالح) يقول :

- لست أدرى كيف تواجدت هذه الدورية المحدودة هنا فالمفترض أن تكون المنطقة خالية ، فى هذا الوقت بالتحديد ، ولكن تواجدها يفسد كل الأمور بالتأكيد .

قال الشاب فى توتر :

- بالطبع .. الرصاصات ستجذب انتباه الكثيرين حتما .

هز (صالح) رأسه ، وهو يقول :

ـ ليست الرصاصات وحدها .. لقد أطلقا انذارًا عامًا .

التفت إليه الشاب بدهشته ، فتابع :

ـ سيارتى بها راديو قادر على التقاط موجاتهم .

سأله الشاب ، وقد لاحت السيارة من بعيد :

ـ وما الذى يمكن أن يحدث ؟

توقّف (صالح) ، ولهث وهو يجيب فى اقتضاب متوتر :

ـ الكثير .

ثم أشار إليه ، مضيفًا فى حزم :

ـ اخلع معطفك هذا ، فالأفضل فى مثل هذه الظروف ، أن تنفى عن نفسك أية صفة عسكرية .

خلع الشاب معطفه ، فبدا أسفله زيًا بدويًا ، أخرج من جيبه غطاء رأس ، جعله يبدو أشبه كثيرًا ببدو (سيناء) ، وتأمّله (صالح) لحظة ، قبل أن يهزّ رأسه ، متمتمًا :

ـ لا بأس .. .. فلنأمل أن يخدعهم هذا .

قالها ، ووثب الاثنان إلى السيارة ، التى انطلق بها (صالح) على الفور ، وهو يقول فى حزم :

ـ تذكّر أنك ابن شقيقتى الراحلة .. اسمك (بسّام) ، وتعانى عيبًا فى النطق .

سأله الشاب فى ضيق :

ـ ولماذا عيب النطق هذا ؟

أجابه (صالح) بسرعة :

ـ حتى يبرّر أية أخطاء فى لهجتك البدوية .. الإسرائيليون ليسوا أغبياء ، وسيكشفون أمرك من أوّل خطأ .

أومأ الشاب برأسه متفهمًا ، وسأله :

ـ هل سنتجه مباشرة إلى (القصيمة) ؟

تنهّد (صالح) ، وأجاب :

ـ نعم .. وكل ما أتمناه هو أن نصلها سالمين .

تلفّت الشاب حوله ، وغمغم :

ـ ما زال كل شىء يبدو هادئًا ، و ...

قبل أن تكتمل كلماته ، برزت تلك الهليوكوبتر بغتة ، من خلف تل بعيد ..

برزت على نحو مباغت مخيف ، وأسفلها يضىء مصباح كاشف ضخم ، وهى تنطلق نحوهما مباشرة ..

وهتف الشاب ، وكل خلية فى جسده تتحفّز للقتال :

ـ أطفئ أنوار السيارة .

مطّ (صالح) شفتيه ، وأجابه متوترًا :

ـ لا فائدة .. لقد لمحونا بالفعل ، وأى تصرّف غير طبيعى سيضاعف شكوكهم ، وسيدفعهم للهجوم مباشرة بلا إنذار .

انعقد حاجبا الشاب ، وهو يتابع الهليوكوبتر ببصره ، وشعر بالحنق فى أعماقه ، لأنه لم يلتقط أحد أسلحة الإسرائيليين ، قبل أن يتجه مع (صالح) إلى سيارته ، وسأل فى قلق :

ـ ما الذى تتوقّع أن يفعلوه الآن ؟!

أجابه (صالح) فى توتر شديد :

ـ سيوقفوننا ، ويفتشون السيارة حتمًا ، وربما ألقوا القبض علينا ، لاستجوابنا بوساطة رجال (آمان)(*) .

(*) آمان : المخابرات العسكرية الإسرائيلية .

انعقد حاجبا الشاب فى شدة أكثر ، وبدا له الموقف سخيفا ومعقدا .

وبالغ الخطورة ..

صحيح أنه يحمل أوراق هوية ، وتصريح أمن إسرائيليًا ، وكلها متقنة التزوير إلى أقصى حد ، إلا أنها لن تصمد حتما ، أمام استجواب خاص ، فى عقر دار المخابرات الإسرائيلية .

وهو يعرف رجال (آمان) جيدا ..

إنه لم يلتق بأحدهم وجها لوجه قط ، ولكنه رأى عشرات الصور لهم ، وشاهد أفلاما تم تصويرها خلسة ، لأساليب استجوابهم الوحشية ، ودرس الكثير والكثير عنهم ، فى مدرسة المخابرات ..

ولن يسمح لهم بالظفر به قط ..

وفجأة ، ودون سابق إنذار ، وثب الشاب خارج السيارة ، وهو يقول لـ (صالح) فى حزم :

ـ واصل طريقك .

ارتفع حاجبا (صالح) فى دهشة عارمة ، وانفرجت شفتاه ، وهو يهم بقول شىء ما ، إلا أنه لم يلبث أن أطبقهما ، وعقد حاجبيه ، وتطلع فى مرآة السيارة إلى الشاب ، الذى جرى بضع لحظات ، ثم انبطح فوق الرمال ، وراح يراقب المشهد فى حذر وتحفز ..

وفى نفس اللحظة تقريبا ، التى فعل فيها (فاى) هذا ، بلغت الهليوكوبتر سيارة (صالح) الجيب ، وغمرتها بضوء مصباحها

الكاشف القوى ، وارتفع منها صوت قوى ، عبر مكبر صوتى ، يقول :

أوقف السيارة ، وغادرها مرفوع اليدين .

ضغط (صالح) فرامل السيارة ، وغادرها وهو يضع كفيه فوق رأسه ، وقلبه يخفق فى عنف ، فى حين هبطت الهليوكوبتر إلى جواره ، وغادرها رجل يحمل مدفعا آليًا ، صوبه إليه فى تحفز وعصبية ، وهو يقول فى حدة :

ـ من أنت ؟.. وماذا تفعل هنا ؟!

أجابه (صالح) فى سرعة :

ـ اسمى (صالح) .. الشيخ (صالح عطية) .. إننى أقيم بالقرب من هنا .. فى (القصيمة) .

سأله الرجل فى غلظة عصبية :

ـ وما الذى أخرجك من دارك ، فى هذه الساعة المتأخرة ؟

أجابه (صالح) :

ـ كنت أطرد قطا .

هتف الإسرائيلى :

ـ تطرد ماذا ؟!

ازدرد (صالح) لعابه ، وأجاب :

ـ قطا .. إنه قط سخيف ، اتخذ منزلى سكنا ، وراح يعيث فيه الفساد ، فيسرق الطعام ، ويمزق الأثاث ، ويتلف الـ ...

قاطعه الإسرائيلى فى غضب :

ـ هل تسخر منى أيها العربى ؟!..

أجاب (صالح) فى سرعة :

ـ مطلقًا .. أنت تعرف القطط .. لابد وأن تحملها إلى مكان بعيد للغاية من منزلك ، حتى تضمن عدم عودتها إليه ..

اندفع الإسرائيلى نحوه ، وضربه بكعب مدفعه فى معدته ، صائحًا :

ـ كاذب .

سقط (صالح) أرضًا ، وشعر بآلام رهيبة فى معدته ، فراح يلهث فى قوة ، والإسرائيلى يصرخ :

ـ أنت جاسوس .. أنت الجاسوس الذى أبلغونا عنه .. قل لى ما الذى كنت تفعله بنا .. اعترف .

حاول (صالح) أن يقول شيئًا ، ولكن الإسرائيلى ضربه مرة أخرى بكعب مدفعه فى معدته ، مكررًا :

ـ اعترف أيها العربى .

برز الطيّار من الهليوكوبتر ، فى هذه اللحظة ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ لم أنجح فى الاتصال بدورية (يهو) و (دافيد) .. جهاز الراديو عندهما لا يستجيب قط .

احتقن وجه الإسرائيلى ، وهو يقول :

ـ لا يستجيب ؟!

ثم التفت إلى (صالح) ، وصوّب إليه مدفعه ، صارخًا :

ـ ماذا فعلت بهما أيها الجاسوس العربى الحقير ؟!.. هل قتلتهما ؟!.. هل قتلت جنديين من جيش الدفاع ؟.. هل جرؤت ؟

لهث (صالح) من فرط الألم ، وهو يجيب :

ـ لست جاسوسًا .. أنا هنا لأطرد القط .

صرخ الإسرائيلى :

ـ هل تصرّ ؟

ثم تراجع خطوتين ، وتابع بوجه تفجّرت فيه دماء الغضب :

ـ فليكن .. أنت أردت هذا .

تنهّد الطيار ، وقال فى لا مبالاة :

ـ هيا يا رجل .. اقتله ولنواصل طريقنا .

جذب الإسرائيلى إبرة مدفعه ، وصوّبه إلى (صالح) ، و ... وفجأة ، برز (فاى) ..

انبعث فجأة من وسط الظلمة ، وهو ينقضّ على الإسرائيلى كالليث ، دفاعًا عن البدوى ، فصرخ الطيّار بزميله :

ـ احترس .

استدار الإسرائيلى ليواجه ذلك القادم الجديد ، وهو يهتف :

ـ اللعنة .. من أين ؟..

قبل أن يتمّ عبارته ، وثب الشاب عليه ، وكال له لكمة كالقنبلة ، وهو يضرب مدفعه بعيدًا ..

وسقط الإسرائيلى أرضًا ، فى حين تراجع الطيّار نحو الهليوكوبتر ، هاتفًا :

ـ يا للشيطان !

حاول الإسرائيلى أن ينهض ، ولكن الشاب انقضّ عليه ثانية ، وركله فى أنفه بكل قوته ، وهو يقول :

ـ لا تنهض .

ثم دار حول نفسه ، وركله ركلة أخرى ، مستطردا :

ـ الأرض هى مكانك الطبيعى ..

تفجّر الدم من أنف الإسرائيلى وفكه ، وتخاذل جسده كله على الرمال ، فاتسعت عينا الطيار فى ذعر ، وقفز داخل الهليوكوبتر ، فى حين التفت الشاب إلى البدوى ، وسأله فى قلق :

ـ أأنت بخير ؟!

أومأ (صالح) برأسه ، متمتما :

ـ نعم .. أنا بخير .

ثم أشار إلى الهليوكوبتر ، مستطردا :

ـ ولكن الآخر يحاول الفرار .. سيكشف أمرنا حتما .

استدار الشاب بكيانه كله نحو الهليوكوبتر ، التى ارتفعت من الأرض بالفعل ، وعلى الرغم من هدير مروحتها العنيف ، أمكنه أن يميّز صوت قائدها ، وهو يهتف غاضبا :

ـ ستدفع الثمن غاليا أيها العربى .

تصوّر الشاب للحظة أن الإسرائيلى يشير إلى ما سيحدث ، عندما يبلغ السلطات بما حدث ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك أن التهديد مباشر للغاية ..

وربما أكثر مما ينبغى ..

لقد ارتفع الإسرائيلى بالهليوكبتر مترا واحدا عن الأرض ، ثم انقضّ بها بكل قوته ..

نحو (فاى) مباشرة .

* * *

٤ ـ المقاتل ..

فرك رجل المخابرات (نسيم) كفيه فى توتر ، داخل الطائرة التى تستعد لدخول المجال الجوى المصرى ، وسأل الطيّار للمرة الخامسة :

ـ أأنت واثق من أن جهاز اللاسلكى يعمل بكفاءة ؟!

ابتسم الطيّار فى شىء من التوتر ، وهو يجيب :

ـ نعم يا سيادة العقيد .. جهاز اللاسلكى يعمل بكفاءة تامة ، ولست أدرى لماذا لم يستقبل الرسالة التى تترقّبها ، حتى هذه اللحظة .

انعقد حاجبا (نسيم) فى توتر بالغ ، وتمتم :

ـ فليكن .. دعنا ننتظر قليلا .

كانت نفس العبارة ، التى كرّرها للمرة الخامسة ، فى حين راح ذهنه يعمل فى سرعة وقلق ، بحثًا عن تفسير للموقف ..

كان المفترض ـ طبقًا للتعليمات ـ أن يرسل (صالح) إشارة متفق عليها ، فور حدوث اللقاء بينه وبين (فاى) ..

فلماذا لم يفعل ؟!

هل تعذّر اللقاء لسبب ما ؟!..

هل فشل ؟!

ولماذا ؟!

ومن أى جانب ؟!..

هل فشل الشاب فى الوصول إلى نقطة اللقاء ؟ أم أن (صالح)

هو الذى لم ينجح فى عبور الصحراء لسبب ما ؟!

وما الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى حدوث هذا أو ذاك ؟!

انشغل عقله فى التفكير لبضع دقائق ، حتى انتزعه الطيّار من أفكاره ، وهو يطلق ضحكة ظافرة ، ويهتف فى حماس :

ـ عبرنا المجال الجوى المصرى .. مرة أخرى نجحنا فى خداع هؤلاء الإسرائيليين ، وأثبتنا لهم أننا الأفضل ، على الرغم من ضعف إمكانياتنا المادية .

غمغم (نسيم) :

ـ الإمكانيات المادية لا تصنع أبطالا يا رجل .

هتف الطيّار فى حماس :

ـ بالتأكيد .

ران عليهما الصمت لحظة ، ثم زفر (نسيم) فى توتر ، وسأل :

ـ قل لى يا رجل .. هل ..

قاطعه الطيّار فى سرعة :

ـ نعم .. جهاز اللاسلكى يعمل بكفاءة .

قالها ، وراقت له دعابته ، فانطلق يضحك فى مرح ، وهو يتجه نحو المطار الحربى ، الذى أقلعت منه طائرته ، ولكن (نسيم) مطّ شفتيه ، وعقد حاجبيه فى شدة ، ولم يبادله تلك الضحكة المرحة .

لقد كان من العسير عليه .. فى ظل هذه الظروف .. حتى أن يبتسم ..

من العسير جدًا ..

* * *

التقى حاجبا (بيجال يانيل) فى صرامة ، وتشابكت أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يهزّ مقعده فى بطء ورتابة ، وسط صمت ثقيل ، خيم على حجرة الاستجواب فى مطار (تل أبيب) الحربى، وعيناه تتطلعان إلى رئيس فريق الأمن الحربى ، الذى بدا شديد العصبية والتوتر ، بعد أن طال به الوقت ، دون أن يلقى عليه (بيجال) سؤالا واحدا .

ولئوان إضافية ، لاذ رئيس الأمن بالصمت ، ثم لم يلبث أن فقد صبره ، فقال فى شىء من الحدة :

ـ حسن .. هل سنظل هنا طوال الليل ؟

رمقه (بيجال) بنظرة صارمة ، قبل أن يجيب :

ـ كلا بالتأكيد .

ثم اعتدل فى حركة حادة ، مستطردا :

ـ لو أنك أجبت أسئلتى بمنتهى الصدق .

قال الرجل فى حدة :

ـ أية أسئلة ؟.. إننى هنا منذ نصف الساعة ، ولم أسمع سؤالا واحدا .

انعقد حاجبا (بيجال) فى صرامة أكثر ، وهو يسأله :

ـ كيف تسلل ذلك المصرى إلى هنا ؟

أجابه الرجل فى عصبية :

ـ أوراقه كلها كانت سليمة .. وما زالت كذلك .. لقد راجعتها بعد مصرعه ، ووجدت أنها كلها قانونية تماما .

قال (بيجال) فى غضب :

ـ هذا مستحيل !.. لا يمكن أن يحصل مصرى على هوية إسرائيلية .

قال رئيس الأمن فى حنق :

ـ وما شأنى أنا ؟!.. سل المصريين .. سلهم كيف منحوا رجلهم هوية إسرائيلية حقيقية .. ربما ابتاعوها من شخص ما ، أو دفعوا رشوة مقابلها ، أو حتى نجحوا فى زرع ذلك الرجل منذ زمن طويل .

احتقن وجه (بيجال) ، وهو يقول فى غضب مستنكر :

ـ نجحوا فى زرعه ؟!.. المصريون ينجحون فى زرع عميل وسطنا ؟! هذا مستحيل تماما .

قال رئيس الأمن بلهجة مستفزة :

ـ ولكن المستحيل تحقق ، ويمكنك أن تراه بنفسك فى مشرحة المستشفى العسكرى .

ازداد احتقان وجه (بيجال) ، وعاد يتراجع فى مقعده ، ثم قال فى عصبية :

ـ فليكن .. لن نناقش هذا الأمر الآن ، ولكن أخبرنى : كيف لم تنتبه إلى أنه جاسوس ؟!. ألم يبدر منه أى تصرف مثير للشك ؟

أجابه الرجل فى حسم :

ـ مطلقا .

قال (بيجال) فى حدة :

ـ ولا لمحة واحدة .

كرر الرجل فى حسم أكثر :

ـ قلت مطلقًا .. الرجـل كان مثالاً للجنـدى الإسرائيلى المخلص .. بل لقد بدا لى شديد التدين إلى درجة التعصُّب .

مطّ (بيجال) شفتيه فى شىء من الازدراء ، وهو يقول :

ـ إذن فقد نجح فى خداعك .

أجابه الرجل فى غضب :

ـ أظنه نجح فى خداع الجميع .

هتف (بيجال) :

ـ ليس الجميع .

رمقه الرجل بنظرة ذات مغزى خاص ، وهو يقول :

ـ على الأقل أولئك المسئولين عن حماية الوطن من الجواسيس والعملاء .

احتقن وجه (بيجال) ثانية ، وغمغم :

ـ أيها الـ ..

قاطعه الرجل متحفزًا :

ـ الـ .. ماذا ؟!

اتفرجت شفتا (بيجال) ، وتكوّرتا على نحو مضحك ، وكأنه يمنع نفسه فى صعوبة من إطلاق سباب عنيف ، يعاقب عليه القانون ، ثم لم يلبث أن قال فى سخط واضح ، وهو يكتم أنفاسه :

ـ أعتقد أن هذا القدر من الأسئلة يكفينى .

أدرك رئيس الأمن أنه قد نجح بالفعل فى استفزاز رجل المخابرات ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة متشفية ، وهو يغمغم :

ـ حقًا ؟!

صاح (بيجال) فى وجهه :

ـ نعم .. حقًا .

نهض رئيس الأمن فى بطء ، وابتسامته الساخرة المتشفية ملتصقة بشفتيه ، وسأل :

ـ من ترغب فى استجوابه الآن ؟

أدرك (بيجال) أن الرجل يسخر منه عمدًا ، فلوّح بيده ، هاتفًا :

ـ اخرج .. اخرج قبل أن أطلق النار عليك .

أسرع الرجل يغادر المكان ، وضحكة ساخرة تنفجر فى أعماقه ، فى حين هتف (بيجال) فى غضب هادر :

ـ اللعنة !.. كيف يمكن للمرء أن يعمل ، وسط هذا المناخ المستهتر ؟

ثم اعتدل يصرخ :

ـ (زلفى) .. أين أنت يا (زلفى) ؟

هرع مساعده إليه ، قائلا :

ـ رهن إشارتك يا آدون (بيجال) .

سأله (بيجال) فى حدة :

ـ ماذا فعلتم ؟

هزّ الرجل رأسه ، مجيبًا :

ـ لم نجد شيئًا ، على الرغم من أننا فتشنا المكان كله ، ولم نترك فيه شبرًا واحدًا .

التقى حاجبا (بيجال) ، وهو يقول فى حدة :

ـ مستحيل !.. هناك (ميكروفيلم) فى مكان ما هنا حتما .

قلب (زلفى) كفيه فى حيرة . قائلا :

ـ أين ؟!

انعقد حاجبا (بيجال) فى شدة ، وبدت عليه علامات التفكير العميق لبضع لحظات . قبل أن يرفع عينيه إلى (زلفى) ، ويقول :

ـ اسمعنى جيدا يا (زلفى) .. أريد مقابلة كل من شاهد ماحدث .

كل شخص رأى ولو لمحة من الحادث .. أريد تكوين صورة دقيقة للموقف كله .

وشرد ببصره لحظة ، قبل أن يتابع فى حسم :

ـ صورة تكفى لتحديد الوسيلة ، التى أخفى بها ذلك العميل (الميكروفيلم) ، وبمنتهى الدقة ، وكأننى رأيت كل ما حدث بنفسى .

قالها دون أن يدرى أنه بذلك قد التقط طرف الخيط ، للوصول إلى الحقيقة ..

حقيقة (الميكروفيلم) ..

ومخبئه ..

* * *

هل سبق لك أن رأيت طائرة هليوكوبتر وجها لوجه ؟!..

إنها جسم هائل ، من المعدن والزجاج ، أشبه بسمكة قرش ضخمة ، يبلغ طولها فى المتوسط اثنى عشر مترا ، وعرضها ثلاثة أمتار ، وارتفاعها يزيد على المترين ونصف المتر ، وفى

قمتها مروحة ضخمة ، لها صوت أشبه بالهدير ، يكاد يصم الآذان ، عندما تبدأ دورانها ..

هل يمكنك الآن أن تعقد مقارنة بين حجم الهليوكوبتر ، وحجم الرجل العادى ؟!..

وهل يمكنك أن تتخيل الآن شعور (فاى) ، والهليوكوبتر الحربية تنقض عليه مباشرة ، وقائدها يحمل هدفا واحدا ..

قتله ..

وبلا رحمة ..

وبكل الهلع والارتياع فى أعماقه ، هتف (صالح) :

ـ احترس يا فتى .. احترس .

لم تلتقط أذنا الشاب ذلك الهتاف ، وهو يتحرك فى سرعة ، محاولا تفادى انقضاضة الهليوكوبتر ، التى بدت له كوحش معدنى ضخم مخيف ، فانحنى فى مرونة ، وترك جسده ينزلق على رمال الصحراء ، فتجاوزته الهليوكوبتر ببضعة سنتيمترات ، وهتف قائدها فى غضب :

ـ اللعنة !.. لقد أفلت هذه المرة .

وجذب عصا القيادة ، ليرتفع بالهليوكوبتر ، وهو يستطرد :

ـ ولكنه لن يفلت فى المرة القادمة .

كان الرجل يجيد القيادة بحق ، لذا فقد ارتفع بالهليوكوبتر فى رشاقة ، ودار بها دورة ضيقة ، قبل أن يستعد للانقضاض على الشاب .

ولكن عينيه اتسعتا فى شدة ، وارتج جسده فى عنف ، وهو يحدق فى الرمال ..

لقد كان (صالح) هناك ، وإلى جواره يرقد الإسرائيلى الفاقد الوعى ، أما الشاب فلم يكن له وجود قط ..

وفى دهشة عارمة ، هتف الطيّار :

ـ اللعنة !.. أين ذلك العربى ؟

انتفض جسده فى عنف ، عندما أتاه صوت صارم ، يجيب :

ـ هنا .

كان الصوت يأتى من مسافة متر واحد منه ، فالتفت إلى مصدره فى ذعر ، ووقع بصره على الشاب ، وهو يدفع جسده داخل الهليوكوبتر ، فصرخ :

ـ ياللشيطان !.. لقد تعلق بها !

وقفزت يده فى سرعة ، محاولة التقاط مسدسه ، ولكن الشاب انقضّ عليه ، وركله فى أنفه ، قائلا :

ـ من الخطر أن تعبث بالأسلحة النارية هنا .

تفجّرت الدماء فى أنف الطيّار ، ولكنه تشبّث بعصا القيادة ، فارتفعت الهليوكوبتر أكثر ، وجذب مسدسه بالفعل ، وصوّبه إلى الشاب ، صارخا :

ـ على العكس .. الأسلحة النارية بالغة الأهمية ..

قبض الشاب على معصمه بحركة سريعة ، وهو يقول :

ـ هذا لو أنك تجيد استخدامها .

انطلقت رصاصة من مسدس الإسرائيلى ، ومزّقت جزءًا من جلباب الشاب البدوى ، وقطعة من لحم ذراعه ، قبل أن يلوى الشاب معصم الرجل ، فتنطلق رصاصة ثانية ، وتخترق الزجاج الأمامى ..

وفى صرامة ، لوى الشاب معصم الطيّار أكثر وأكثر ، وهو يقول :

ـ هل ستقاوم طويلاً ؟

دارت الهليوكوبتر حول نفسها ، فى مناورة بالغة الخطورة ، بعد أن فقد الطيّار سيطرته عليها ، وانشغل بمقاومة الشاب ، هاتفًا :

ـ بالتأكيد .. الإسرائيلى لا يستسلم قط .

حلّ الشاب حزام مقعد الطيّار بحركة سريعة ماهرة ، وهو يجيب فى حزم صارم :

ـ فليمت إذن .

قالها ، وتعلّق بلوحة الأزرار فى سقف الهليوكوبتر ، ثم رفع قدميه ، وركل بها الإسرائيلى بكل قوته ، فانتزعه من مقعده ، ودفعه خارج الهليوكوبتر ..

واتسعت عينا الطيّار الإسرائيلى فى رعب هائل ، عندما وجد جسده يطير فى الفراغ ، وأطلق صرخة ذعر رهيبة ، وهو يهوى فى الفضاء ، ليرتطم برمال الصحراء فى عنف ، ويلقى مصرعه على الفور ..

وانتصر (فاى) ..

انتصر مرحليًا ! إذ إنه لم يكد يتخلّص من الطيّار الإسرائيلى ، حتى انتبه بغتة إلى أن الهليوكوبتر ، التى فقدت توازنها تمامًا ، تميل على نحو مخيف ، وتتجه مباشرة نحو الرمال ..

رمال الصحراء ..

ومع السرعة التى تهوى بها ، كان من الواضح أنها تشهد لحظاتها الأخيرة ..

ولحظات الشاب أيضا ..

* * *

لهث (صالح) فى انفعال شديد ، عندما شاهد الشاب يتعلق بالهليوكوبتر ، وشاهد الصراع الدائر بينه وبين قائدها ، وتمتم :

ـ رباه !.. هذا الشاب شديد التهور .

احتبست أنفاسه مع التحركات العنيفة للهليوكوبتر ، التى راحت تدور فى الهواء على نحو مخيف للغاية ، وهتف من أعماقه :

ـ رباه .. ساعده .. ساعده .. إنه لا يستحق هذا .

لم يكد ينطقها ، حتى فوجئ بالإسرائيلى الآخر ينقض عليه فى عنف من الخلف ، صارخا فى ثورة :

ـ لن تفلحوا قط أيها العرب .

كانت الانقضاضة قوية مباغتة عنيفة ، إلا أن البدوى (صالح) لم يكن أبدا بالرجل الهين ..

لقد خبر الخطر وعركه ، وعايشه طويلا وكثيرا ، حتى لم يعد هناك ما يمكن أن يفت فى عضده ..

لذا ، فقد استقبل انقضاضة الإسرائيلى برد فعل مباشر وسريع ، فانحنى إلى الأمام ، وأدار ذراعيه خلف ظهره ، عبر كتفيه ، وقبض على مؤخرة عنق خصمه ، ثم جذبه فى قوة ، جعلت الإسرائيلى يطير فى الهواء ، ويسقط على ظهره فى عنف ..

ولكن الإسرائيلى أيضا لم يكن بالخصم الهين ..

لقد سقط على ظهره ، ثم هبّ واقفًا على قدميه بسرعة مدهشة ، واستلّ من حزامه خنجرًا ماضيًا ، وهو يهتف فى غضب :

ـ قلت لك .. لن تفلح أيها العربى .

قالها ، وانقضّ فى وحشية على (صالح) ، الذى وثب جانبًا ، واستلّ خنجره من حزامه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أخطأت باختيارك الأسلحة البيضاء يا هذا .

هوى الإسرائيلى بخنجره على صدر (صالح) ، إلا أن البدوى استقبل الخنجر على نصل خنجره ، ثم دفع الإسرائيلى فى قوة ، ووثب يطعنه فى قلبه مباشرة ، مستطردًا :

ـ فهذا مضمارنا منذ الأزل .

شهق الإسرائيلى ، وجحظت عيناه فى قوة ، ثم هوى جثة هامدة ، تحت قدمى (صالح) ، الذى بدا جامدًا ، خاليًا من أية انفعالات ، وهو ينحنى لينتزع خنجره من قلب الإسرائيلى ، ويمسح نصله فى زيه العسكرى ، قبل أن يعيده إلى حزامه ، ويرفع عينيه ليتابع حركة الهليوكوبتر ..

وفى اللحظة نفسها ، هوى الطيّار من الطائرة ، وأطلق صرخة رهيبة ، قبل أن يرتطم بالرمال ..

وفى هذه المرة ، شهق (صالح) فى انزعاج ..

ليس حزنًا على الإسرائيلى ، ولكن خوفًا على مصير الشاب ، فقد كانت الهليوكوبتر تهوى نحو رمال الصحراء ..

وفى مسار مخيف ..

* * *

من المؤكّد أن التدريبات المكثفة ، التى يتلقّاها الشاب فى مدرسة المخابرات ، قد أضافت إليه عددًا لا بأس به من الخبرات والمهارات المختلفة ..

ولكن أفضل ما أضافته إليه هو القدرة على التفكير بسرعة ..

وعلى اتخاذ القرار المناسب .

وفى الوقت المناسب .

وعندما شاهد الشاب الهليوكوبتر تهوى ، استدار عقله فجأة كل ما تلقّاه من تدريبات ، حول طرق قيادتها ، وكيفية التعامل معها ، فى حالات الطوارئ ..

وقبل حتى أن يكتمل تفكيره ، كان يقفز ليحتلّ مقعد القيادة ، ويمسك عصا القيادة فى قوة ..

ودوت فى عقله التعليمات الأساسية ..

« لا تفقد السيطرة على أعصابك قط .. » .

« كل شىء يمكن إصلاحه ، مع رد الفعل المناسب ، فى الوقت المناسب .. » .

« الآلة لا إرادة لها .. إنها فقط تطيع كل ما تأمرها به ، حتى ولو كان خطأ .. » .

وفى حزم ، حدّد الشاب المسار الذى ينبغى أن يتخذه ، وراح يحرّك عصا القيادة فى خفة ، ومهارة ، وهو يسيطر على أعصابه بقلب من فولاذ ..

ولثوان ، واصلت الهليوكوبتر انحدارها ، ولكن بسرعة أقل ، وبزاوية أقل حدة ، وخفق قلب (صالح) فى عنف ، إلا أنها لم

تلبث أن اعتدلت بغتة ، وانخفضت سرعة هبوطها إلى أقصى حد ، قبل أن تتوقف لحظة فى الهواء ، ثم تبدأ رحلة هبوط هادئة منتظمة ..

وفى انفعال جارف ، صرخ (صالح) :

ـ لقد فعلها .. يالروعة !.. ذلك الشاب الرائع فعلها .

أثارت الهليوكوبتر عاصفة من الغبار ، وهى تهبط فوق رمال الصحراء ، ولكن (صالح) لم يطق الانتظار ، فاندفع يشق سحابة الرمال ، وهو يهتف :

ـ يا لك من بطل !.. ما اسمك يا فتى ؟

تطلع إليه الشاب فى صمت مشوب بالتوتر ، قبل أن يتمتم :

ـ (فاى) .

سأله (صالح) فى دهشة :

ـ ماذا ؟!

ازدرد الشاب لعابه ، وأجاب :

ـ (فاى) .. هذا هو الاسم الوحيد الذى أعرفه .

انعقد حاجبا (صالح) ، وهو يتطلع إليه فى دهشة ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، وربت على كتفه ، قائلا :

ـ آه .. قوانين السرية .. ينبغى أن أدرك هذا .

ثم أشار إليه ، مستطردا :

ـ ولكن دعنا من هذا الآن ، وهيا بنا نبتعد عن هنا بأقصى سرعة .

أشار الشاب إلى قلب الصحراء ، قائلا :

ـ أعتقد أن الأمور لن تسير طبقا للخطة بعد الآن .

بدا التوتر على وجه (صالح) ، وهو يحدق فى أضواء مصابيح السيارات ، التى تقترب من موضعهما ، وقال :

ـ رباه !.. إنها ست سيارات جيب على الأقل .. ينبغى أن نتحرك بأقصى سرعة .. هيا .

عقد الشاب حاجبيه بضع لحظات ، ثم قال بلهجة حاسمة :

ـ أسرع أنت إلى (القصيمة) .

هتف (صالح) :

ـ أنا ؟!.. هل تقصد وحدى ؟!.. هذا مستحيل !! مهمتى هى أن أصحبك حتى (بئر سبع) ، طبقا للخطة .

أجابه الشاب فى حزم :

ـ لم يعد هناك وجود للحظة .. لقد ارتبك الأمر كله ، وعلينا أن نرتجل خطة جديدة .

سأله فى حدة :

ـ هل تعتمد تلك الخطة الجديدة على رحيلى وحدى ؟

أومأ الشاب برأسه إيجابا ، وقال :

ـ نعم .. لا أحد يعلم أنك وسيط لنا ، وخاصة بعد مصرع هذين الإسرائيليين ، وأملك الوحيد فى النجاة والاستمرار هو أن تعود فورا إلى (القصيمة) ، وسأعمل على تغطية فرارك .

سأله (صالح) فى عصبية :

ـ وكيف ستفعل هذا ؟

ربت الشاب على جسم الهليوكوبتر ، مجيبا :

ـ بهذه .

هزّ (صالح) رأسه معترضًا ، وقال :

ـ ولكنهم ينتظرونك بالفعل فى (بئر سبع) .

تنهّد الشاب ، وأجاب :

سأبذل قصارى جهدى للحاق بك وبهم هناك .. هذا وعد .

صمت الاثنان ، وكل منهما يتطلّع إلى الآخر ، ثم قال (صالح) ، وهو يمسك كتفى الشاب فى قوة :

ـ سأنتظرك هناك ، فى (بئر سبع) .. كلمة السر (نسر) ابحث عن (أبى مازن) .

أومأ الشاب برأسه ، مغمغمًا :

ـ سأفعل بإذن اللّه .

ربّت (صالح) على كتفيه فى حرارة ، ثم انطلق نحو سيّارته ، ولوّح له بيده ، قبل أن تنطلق به السيارة نحو بلدته ..

وفى هدوء حاسم ، جذب الشاب عصا القيادة ، وارتفع بالهليوكوبتر ، ثم انطلق نحو رتل السيارات ..

كانت خطته تعتمد على تشتيت الرتل ، وإمطاره برصاصات مدفع الهليوكوبتر ، بحيث ينشغل الجميع فى القتال ، حتى يبتعد (صالح) عن المنطقة تمامًا .

ولكن فجأة ، برزت ثلاث طائرات هليوكوبتر حربية من خلف رتل السيارات ، والتقط جهازه اللاسلكى رسالة بالعبرية ، تقول :

ـ من (س) إلى (و) .. لماذا تتخذ هذا المسار ؟!.. لماذا تخالف مسارك الطبيعى ؟ أجب .. من (س) إلى (و) .. اذكر كلمة السر .

ولكن الشاب تجاهل الرسالة تمامًا ..

إنه يجهل كلمة السر ، وسيضطر حتمًا للاشتباك مع طائرات الهليوكوبتر الثلاثة ، على الرغم من براعة طياريها وتفوّقهم العددى .

ومن الطبيعى أنه لا جدوى من الفرار ..

لذا ، فقد انقضّ الشاب على طائرات الهليوكوبتر الثلاثة ، واللاسلكى يصرخ بالعبرية :

ـ ماذا تفعل يا (و) ؟! لماذا تتخذ هذا المسار العجيب ؟!

ولم يجب الشاب فى هذه المرة أيضًا ..

كل ما فعله هو أن ضغط زر إطلاق النيران ، فى قمة عصا القيادة ، و ...

واشتعل الجحيم فى سماء (سيناء) ..

* * *

تابع الجزء التالى فى الكتاب القادم

من (كوكتيل ٢٠٠٠)

* * *

عملية تل أبيب

* هل ينجو (فاى) من ذلك القتال الرهيب ، فى سماء (سيناء) ؟!.
* كيف يمكن أن يصل (فاى) إلى (تل أبيب) ، مع رفع درجة الطوارئ إلى الحد الأقصى ، فى (إسرائيل) كلها ؟!.
* من ينتصر فى النهاية ، رجل المخابرات الإسرائيلى (بيجال) ، أم بطلنا الجديد (فاى) ؟!.
* اقرأ التفاصيل المثيرة ، واستمتع بالقتال مع بطل السلسلة الجديدة (فاى) .

العدد القادم

عملية (تل أبيب) الجزء الثانى

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

المرأة مشكلة .... صنعها الرجل

(دراسة)

ولد وبنت

٢ ـ ولد .. وبنت ..

على الرغم من مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا هجريًا على عصر الجاهلية ، ومن أننا نتنسّم روائح القرن الحادى والعشرين ، مازالت الأنثى تُستقبل ، وهى تطلق صرخاتها الأولى فى الحياة ، ككائن زائد غير مرغوب فيه ، وما زال العديدون فى معظم البلدان العربية ـ إن لم يكن كلها ـ يستقبلونها بوجه مسودّ وهم كاظمون ، على عكس الذكر ، الذى يتلقّفه الجميع فى فرحة غامرة ، وكأنما حمل الخير كل الخير بمولده ..

والمدهش أن هذه التفرقة الجنسية لا تقتصر على العرب وحدهم ، كما قد يتصوّر البعض ، ففى أغلب أنحاء العالم ، (أوروبا) ، و (آسيا) ، و (إفريقيا) ، وحتى فى الأمريكتين ، يشعر الأب بسعادة حقيقية ، عندما تنجب زوجته طفلاً ذكرًا ..

بل والأكثر إثارة للعجب أن الزوجة نفسها تكاد تطير من السعادة ، عندما تنجب الذكر ، وكأنها تعلن بهذا نجاحها فى الحصول على الأفضل ، وبراعتها كأنثى فى إنجاب النوع المطلوب ، كما لو أن هذا يعود إليها وحدها ، وليس إلى الخالق عزّ وجلّ .

ومعظم النساء يبرّرن فرحتهن هذه بأن إنجاب الذكر يبعث فى نفوسهن الارتياح ، ويملؤهن بالثقة ، لأنهن واثقات من أن الأزواج ، مهما تظاهروا بسعة الصدر والأفق ، يتلهفون إلى إنجاب الوريث ..

وقد يتبادر إلى الأذهان أن الأثرياء فقط هم الذين يتلهفون على

إنجاب وريث ، حتى يضمنوا ألا تذهب الثروات ، التى جمعوها طيلة عمرهم ، إلى غيرهم، ممن لا يحملون ألقابهم ، التى يعتزون بها للغاية ، ولكن الطريف أنه حتى الذين يغرقون فى فقر مدقع يتلهفون أيضًا على انجاب من يرث اسمهم ولقبهم ، حتى ولو لم يكن هناك من يعرفه ..

وعندما تتساءل عن السر فى هذا ، يخرج إليك الجميع بعدد من الأسباب ، لتبرير رغبتهم الشديدة فى إنجاب الذكور ..

فالبعض ـ وخاصة الأثرياء ـ يقولون إن شرائع وقوانين الميراث لا تضمن وصول التركة كلها إلى الأبناء ، إلا لو كان فيهم ذكر على الأقل ، أما فى حالة عدم وجوده ، فثلث الثروة يذهب حتمًا إلى الآخرين ..

وهذا المنطق يثير الدهشة بحق ..

فهل يضمن أحدهم الثروة يمكن أن تبقى ، فقط لأنها ذهبت إلى ذكر يحمل اسمًا لا فضل له أو لوالده فيه ؟!..

من أدراتا أن ذلك الذكر لو حصل على الثروة ، لن يبدّدها على أمور تافهة ، أو ينفقها بلا تعقّل ، فيضيع كل ما جمعه الأب فى حياته ، على يد ابنه فى سنوات أو شهور ، أو حتى أيام ؟!

بل ومن قال إن الإنسان ، مهما بلغ من الذكاء والبراعة ، يمكنه أن يضمن الرزق أو استمراره ، ولو لساعة واحدة ؟!

أو حتى دقيقة واحدة ..

ألم يعلمنا الدين والتاريخ أن أحدًا ، مهما بلغ من الثراء ، فلن يصل إلى ما وصل إليه (قارون) ، ثم لم ينفعه هذا أو يشفع له لحظة واحدة ؟!

ربما لا ينجب رجل سوى إناث فحسب ، ويورثهن ثلثى ثروته ، ملتزمًا بما أقره الشرع والقانون ، فيضع الله (سبحانه وتعالى) البركة فى ثلثى الثروة ، وينميهما ، فيتضاعفان أضعافًا مضاعفة ، وتعود على بناته وأولادهن بالخير والبركات ..

وربما ينجب جيشًا من الذكور ، ويورثهم ثروته كلها ، فيتصارعون ويتشاحنون ، وربما يصل بهم الأمر إلى أن يؤذى الأخ أخاه ، أو يقتله ، مثلما حدث مع (قابيل) و(هابيل) ، فتضيع الثروة كلها ، ولا يتبقى منها ما يكفى حتى لإطعامهم خبزًا جافًا ..

كل هذا فى علم الغيب ، ولا دخل له بإنجاب الذكور أو الإناث . أو حتى بالثراء ..

وبعض الرجال لا يفكرون فى الأمر من هذه الناحية ، بل وليست عندهم ثروة يمكن أن يورثوها لغيرهم ، وعلى الرغم من هذا فهم يتمنون إنجاب الذكر ، حتى يحمل اسمهم ، الذى يبقى بعد وفاتهم ..

وهذا الأمر بالذات يشف عن مدى أنانية الإنسان وتشبثه بالحياة ، فهو يتصوّر أن وجود ابن يحمل اسمه سيحفظ وجوده فى الدنيا ، حتى بعد أن يفارقها ، ناسيًا أنه شخصيًا لن يعنيه هذا الأمر ، عندما تنتهى علاقته بالدنيا ، فعندئذ سيكون هناك ما يشغله أكثر ..

ثم ماذا لو حمل هذا الابن اسمه فى مصيبة أو عار ؟!..

ماذا لو كبر ليصبح مجرمًا أو قاتلاً ، أو حتى جاسوسًا خائنًا ، يكون هو أوّل من يتوارى منه خجلاً ، وأوّل من يتمنى لو لم يحمل اسمه يومًا ؟!..

كلها أمور فى علم الغيب ..

ولكن من يفكر ، ومن يحلل ؟!..

أما الفئة الأكبر ممن يتلهفون ويسعدون لإنجاب الذكور ، فهى تلك التى تخشى إنجاب الإناث ، وتقول إنهن لا يجلبن سوى القلق والخوف والمتاعب ..

بل وربما العار أيضًا ، كما يقولون فى الصعيد ..

ففى عرف هذه الفئة ، يكون الصبى أقل إثارة للقلق والمتاعب ،

ولا يثير الخوف فى النفوس طوال الوقت ، كما تفعل الفتاة ، إذ يمكنه أن يخرج ويدخل وقتما يشاء ، وأن يصادق كل من يحلو له ، حتى ولو كان له أصدقاء من بنات الآخرين !!

والأسرة لا تعترض ـ إلا نادرًا ـ إذا ما تحدثت فتاة إلى ابنها ، بل وربما يشعرون بالزهو والفخر أحيانًا ، فى حين يصيبهم الغضب والجنون ، إذا ما استقبلت ابنتهم محادثة هاتفية من زميل لها ، ويحيطونها بنظرات الشك والقلق ، وربما يمطرونها بسيل من الأسئلة حول عائلته واهتماماته ، ومدى اهتمامها به أو اهتمامه بها ..

وعندما يكبر الصبى ، وتهفو نفسه للارتباط بالجنس الآخر ، لا تعانى الأسرة كثيرًا ، بل تكتفى بتحذير متخاذل ، ونصيحة بأن يولى الاهتمام الأكبر لدراسته ، حتى لا ينشغل عنها بمثل هذا الارتباط .

ولكن الفكرة ـ مجرد الفكرة ـ محظورة تمامًا بالنسبة للفتاة ..

غير مسموح لها إطلاقًا بالارتباط بالجنس الآخر ، حتى فى خيالها !!..

لا صداقات ، أو زمالات دراسة ، أو حتى رفاق ناد .

هذا لأن البنت ـ فى مفهوم هذه الفئة ـ كائن قاصر ، غرّ ،

ساذج ، تكفى همسة ناعمة للإيقاع به ، وخداع عقله وحواسه ، وإغوائه ، و ...

وتشعر البنت بهذه التفرقة ، منذ اللحظات الأولى ، التى يبدأ فيها وعيها وإدراكها ..

تشعر بفارق المعاملة بينها وبين شقيقها ..

وربما بينها وبين ابن عمها ، أو ابن خالتها ، أو حتى ابن الجيران ..

إنها تدرك على الفور أن أنوثتها هى التى صنعت هذه التفرقة .

وأن ذكورة الولد هى سر تفوقه عليها ..

وهنا تبدأ المشكلة ..

قد يتصور البعض أن هذا الحديث مبالغ فيه للغاية ، وأن الأطفال فى هذه السن الصغيرة لا يمكنهم إدراك الفارق الجنسى أو استيعابه ..

ولكن هذا خطأ ..

كل الدراسات الحديثة أكدت أن الأطفال يمكنهم استيعاب هذه الأمور ، والشعور بالتفرقة عندما يبلغون الثانية من عمرهم فحسب .

صحيح أنهم لا يستطيعون فهم الأسباب وتحليلها ..

ولكنهم يدركون الأمر المباشر ..

التفرقة ..

والمؤسف أننا ، على اختلاف تعليمنا وثقافتنا ، نسهم بقدر أو بآخر فى تعميق الشعور بهذه التفرقة ..

وربما دون أن ندرى ..

فعند اختيارنا للعب الأطفال مثلاً ، نختار فى المعتاد دمية للبنت ، ومسدس للولد .

وفى المولد (عروسة للبنت وحصان للولد) ..

وإذا ما حدث ، وانبهرت البنت بالمسدس ، فنحن نزجرها ، ونؤكد لها أن هذه اللعبة لا تناسبها ، لأنها بنت ..

والولد لا ينبغى أن يهتم بالدمية ، لأنه ولد ..

ولكن البنت تظل مبهورة بالمسدس ..

والولد لا تذهب رغبته فى اللعب بالدمية ..

كل ما حدث هو أن الاثنين أخفيا رغبتهما فى أعماقهما ، وراح كل منهما يختلس النظر إلى لعبة الآخر فى شوق ولهفة ..

وعندما يدير الأبوان عيونهما ، أو ينشغلان ، يسرع الولد باختطاف دمية البنت ، وتلتقط هى مسدسه فى شغف ..

وحتى وهما يفعلان هذا ، يكونان قد أدركا وجود فارق جوهرى بينهما ..

هذا ولد .. وهذه بنت ..

ومع إدراكهما هذا ، يحدث تباعد مرحلى بينهما ، فيرفض الولد اللعب مع البنات ، وتخجل البنت من اللعب مع الأولاد ..

ولكن هذا أهون ما يفعله الآباء بالأبناء ..

وبالذات بالبنت ..

ففى مرحلة تالية ، يبدأ الآباء فى التفكير فى كل المشكلات ، التى يمكن أن تسببها لهما البنت ..

وأخشى ما يخشياته ، فى تلك المرحلة ، هو أن تنحرف البنت ، وأن تنجذب إلى الجنس الآخر ، فيحدث من هذا مالا تحمد عقباه .

والمثير للأسى أنهما فى خشيتهما هذه ، لا يحاولان اللجوء إلى الأسلوب الأمثل ، ألا وهو الارتباط بالبنت ، واحتضانها ، وحسن تربيتها وتوجيهها ، وتعريفها بدينها وتقاليد مجتمعها . وبالخطأ والصواب فى مراحل عمرها ، وإنما تبدأ خطة موروثة معتادة ، لا تمت للعقل أو للحكمة بأدنى صلة ..

خطة تجريد البنت من أنوثتها ، حتى لا تقودها تلك الأنوثة إلى الوقوع فى الخطأ ..

وأهم مراحل هذه الخطة هى الختان ..

وعلى الرغم من أننى لست متفقهًا فى أمور الدين والشريعة ، ومن أن قراءاتى فى هذا الشأن لا تكفى للإفتاء فى مثل هذا الأمر ، إلا أننى تابعت ، ولفترة طويلة ، المناقشات والمجادلات العنيفة ، التى دارت حول ختان البنات ، والتى اختلفت فيها الآراء وتناحرت فى شدة ، حول وجوب أو عدم وجوب إجراء هذه العملية التشويهية ، التى درسنا فى كلية الطب أنها أمر بشع ، يؤذى الأنثى إيذاءً عنيفا ، من الناحيتين العضوية والنفسية ..

وفى النهاية ، توقفت عند سؤال واحد ..

لو أن الجميع قد اتفقوا على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يختن بناته ، ثم اختلفوا حول الحديث الخاص بالختان ،

وتناقشوا فى مغزاه ومضمونه ، والغرض منه ، فأين تكمن المشكلة ؟!..

لدينا قول وفعل ، القول اختلفنا حوله ، والفعل اتفقنا على حدوثه ، فأيهما أكثر قوة ؟.. القول أم الفعل ؟!..

لو أننا طبقنا قواعد المنطق الطبيعى ، لوجدنا أن الفعل أكثر قوة من القول ، حتى ولو اتفقنا على صحتهما معًا ؟

ولو أننا أعملنا عقلنا ، بناءً على هذه القاعدة البسيطة ، لأدركنا جميعًا أن الدين لم يحثّ قط على ختان البنات ، وإلا لكان رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) أولى بتطبيق قواعد الدين على بناته كمثل ..

ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) لم يفعل ..

فما الذى يعنيه هذا ؟!..

ولقد أجريت أبحاثًا ودراسات عديدة حول عادة الختان هذه ، واتفقت كلها على أنها ليست رمزًا دينيًا أو وثنيًا ، وإنما هى عادة إفريقية بالتحديد ، انتشرت على طول وادى النيل ، من منابعه وحتى مصبه ، وسر انتشارها فى هذه البقعة بالتحديد غامض ومجهول ، ولكنها ـ كمعظم العادات السيئة ـ بقيت وقاومت ، وأصرّت على مواصلة تأثيرها السيئ فى البنات ، دون رحمة أو تروّى أو تفكير .

وكأن الوالدين يعاقبان البنت على ضعف ثقتهما بنفسيهما ، وفى قدرتهما على حسن تربيتها وتعليمها ..

وبأبشع وسيلة ممكنة ..

والختان يصيب البنت بصدمة نفسية رهيبة ، ويطعن أنوثتها فى مقتل ، فينتابها شعور دائم بالدونية والضعف والاستسلام ، أو بالغضب والثورة ، وبالسخط على جنسها ، الذى جعلها تعانى كل هذه المعاناة ، وعلى يد من ينبغى أن يمنحوها الحماية والأمن والأمان ..

وتكبر البنت ، ويكبر معها الشعور بالأسى والمرارة ..

ويكبر الولد ، ليكبر معه شعوره بالتفوق والسيطرة ..

ومع مرور الزمن ، يتعمّق شعور الاثنين بالفارق بينهما ، فالولد يفصح عن مشاعره فى بساطة وبلا تعقيدات ، فى حين من المحظور على البنت أن تضحك بصوت مرتفع ، أو تبتسم لأحد ، أو تتبسّط فى الحديث مع أى مخلوق ، وخصوصًا مع الشاب من الجنس الآخر ..

وعندما تتكوّن الصداقات ، يخرج الولد فى حرية للقاء أصدقائه ، والتنزه معهم ، والذهاب إلى النوادى ودور السينما ، والعودة أحيانًا بعد منتصف الليل ، فى حين تحمل البنت معها قائمة من المحظورات والممنوعات ، إذا ما تبسّط أهلها ، وقرّروا السماح لها

بالذهاب لزيارة إحدى صديقاتها ، فلا ينبغى لها أن تتأخر فى العودة ، بعد التاسعة مساء ، ومحظور عليها التحدث مع شقيق صديقتها ، أو التحدُّث فى الهاتف .. أو .. أو .. أو ....

وينمو شعور البنت بالغضب والسخط على جنسها ، وتتمنى لو أنها خلقت ذكرا ، حتى يمكنها أن تتمتع بنفس الحريات ، التى يتمتع بها الولد ..

وحتى عندما يعود شقيقها فى ساعة متأخرة ، ويعلن رغبته فى تناول طعام العشاء ، فإن أمها تميل عليها ، وتطالبها بإعداد الطعام له ..

والويل كل الويل ، لو أنها اعترضت ، وطالبته بأن يعد طعامه لنفسه ..

لحظتها سيصرخ الجميع فى وجهها بأنه من العيب أن تعترض ، لأن شقيقها ولد ، وهو رجل البيت بعد أبيه ..

ويتعمق شعور البنت أكثر وأكثر بالتفرقة ..

والعجيب أن هذه التفرقة هى أحد أسباب التفوق الدراسى للبنات ، فلأنها لا تستطيع الخروج أو السهر ، يتركز اهتمامها

كله فى دراستها ، فستذكر لساعات أطول ، وتحصل على درجات أعلى ..

بل وربما يصنع منها هذا شخصية أقوى احتمالا وأكثر صلابة .

وهذا مالاحظته فى الأعوام الأخيرة .

فالبنت ـ كل بنت ـ تعترض مسيرة حياتها عقبات أكثر ، ومشكلات عويصة ، تنبت كلها من كونها بنت ..

أما الولد ، فمتاعبه أقل ، والعقبات فى مسيرته أبسط ، لأنه ولد ..

وهكذا تعتاد البنت أن تقاتل وأن تكافح ، لتحقق طموحاتها وآمالها ، فى حين لا يبذل الولد إلا أقل القليل فى سبيل هذا ..

أو يبذله أقل مما تبذله هى ..

وهكذا تنتهى المسيرة وقد اكتسبت البنت صلابة واضحة ، فى حين اكتسب الولد شيئا من التراخى ، يبدو فى عبثه وإهماله ، ولا مبالاته بمشاعر وعواطف الآخرين ..

ومن هنا تبدأ المشكلة الحقيقية ..

مشكلة بنت اكتسبت صفات الرجولة ..

وولد يفتقر إلى معظم هذه الصفات ..

ولأن البنت ـ بحكم أنوثتها الطبيعية ـ تميل إلى صفات الرجولة فى الولد ..

ولأنها تحسده على هذه الصفات ..

فإنه من الطبيعى أن تنشأ داخلها مشكلة مزدوجة ، ذات طابع خاص ..

إنها تضيق بالأولاد ، الذين لا يحملون صفات الرجولة التى تنشدها ، فى نفس الوقت الذى تضيق فيه بأنوثتها ، التى تمنعها من الاستمتاع بحريتها ، وتحرمها من الفوز بالكثير مما تطمح إليه ..

ومن هذه النقطة تنشأ المشكلة الحقيقية الكبرى ..

مشكلة المرأة ..

التى صنعها الرجل ..

* * *

وللحديث بقية فى الكتاب القادم من (كوكتيل ٢٠٠٠)

١ ـ الضائع ..

انخفضت درجات الحرارة على نحو يفوق المعدلات الطبيعية ، فى تلك الليلة الأخيرة ، من عام ألفين وعشرة ، وبدت شوارع (القاهرة) خالية تقريبا ، إلا من عدد قليل من المارة ، الذين خرجوا للاحتفال بمولد العام الجديد ، فى حين قبع الباقون فى منازلهم ، يتابعون فى شغف عروض (التليفزيون) المجسم (الهولوفيزيون) ، الذى لم يبدأ بثه إلا فى تلك الليلة بالتحديد ، وران الصمت على الصغار والكبار فى انبهار حقيقى ، وهم يحدقون فى تلك الصور الثلاثية الأبعاد ، لنجوم الفن والصحافة ، والاستعراضات المدهشة ، التى تبدو وكأنها تعرض بينهم ، بكل مؤثراتها الضوئية والصوتية ، وحتى برائحة العطور وأدوات التجميل المستخدمة ، واندفع الأطفال يحاولون إمساك تلك الصور الهولوجرامية فى لهفة ، وارتفعت صرخات الإثارة من حلوقهم ، وأصابعهم الصغيرة تقبض على الهواء ، دون أن تظفر بشىء مما يرونه بينهم ..

وبعيدا عن كل هذا ، جلس رجال دورية الشرطة المتجولة داخل سيارتهم المكيفة الهواء ، وعيونهم تراقب كل ما حولهم ، على الرغم من وجود أجهزة المراقبة والرصد الحديثة ، داخل السيارات المجهزة ، وبدا الضجر على ضابط الدورية ، وهو يلوح بيده ، مغمغما فى شىء من الضيق :

ـ يا لها من ليلة !.. أشعر وكأننا نجول فى مدينة مهجورة .. من يمكن أن يرتكب جريمة فى ليلة كهذه ؟!

ابتسم زميله ، وهو يسترخى فى مقعده ، قائلا :

ـ الجريمة لا تختار وقتا بعينه .. إنها تنبع فى كل زمان ومكان .. هذا ما تعلمناه فى الكلية ..

أومأ الضابط برأسه موافقا ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح .. إننى أذكر ليلة كانت الأمطار تتدفق فيها كالسيول ، وضبطنا لصا يوصل جهاز كمبيوتر بنافذة الصرف الآلية لأحد البنوك ، ويحاول الاستيلاء على ثروة .

هز زميله كتفيه ، وقال :

ـ هذا أمر طبيعى .. اللص يختار دائما الأوقات التى يندر فيها تواجد المارة ، حتى يمكنه العمل فى هدوء .

بدا وكأن الحديث يروق لهما ، أو أنه يساعدهما على كسر الإحساس بالملل والضجر ، فقد انهمكا بضع دقائق فى مناقشة طبائع اللصوص ، وتطور أساليب الجريمة فى السنوات العشر الماضية ، وظهور فئة جديدة من المجرمين ، تتعامل مع التكنولوجيا وتعتمد عليها ، وتبتكر من الطرق والأساليب ما يضاعف من صعوبة الصراع ، ويضع رجال الشرطة فى سباق دائم متصل ، لكشف كل جديد ، وتطوير وتحديث أساليبهم فى التعامل مع الجريمة والمجرمين ..

ثم فجأة ، هتف الضابط :

ـ رباه !.. كدنا نفقد لحظة مولد العام الجديد .. إنها الثانية عشرة إلا دقيقة واحدة .

ضحك زميله ، قائلا :

ـ وماذا سنفعل لو لحقنا بلحظة مولده ؟!.. هل نسيت أنهم

اختارونا بالذات للعمل فى تلك الليلة ، لأن كلاً منا أعزب ، لا زوجة له ولا ولد .

ابتسم الضابط ، وهو يقول :

ـ ولكننا نحتفظ بمشاعرنا الآدمية على الأقل .

واعتدل فى مقعده ، وهو يتطلّع لساعة السيارة ، ويخفض السرعة إلى حد ما ، مستطردًا :

ـ هيّا .. استعد .. بقيت عشرون ثانية فحسب .. تسع عشرة .. ثمان عشرة .. سبع عشـ ..

قاطعه فجأة هتاف زميله :

ـ رباه !.. احترس يا رجل .. احترس .

رفع الضابط عينيه عن الساعة ، وتطلّع أمامه فى انزعاج ، ووقع بصره على ذلك الشاب النحيل ، الذى برز بغتة من خلف كشك هاتف الكمبيوتر ، وانطلق يعبر الشارع ، و ...

وضغط الضابط فرامل سيارته بكل قوته ، وهو ينحرف بها إلى اليسار فى سرعة ، محاولا تفادى الارتطام به ، فانزلقت إطارات السيارة فوق الأرض الرطبة ، وانبعث صوت آلىّ من الكمبيوتر الخاص بها ، يقول :

ـ إنذار .. إنذار .. خروج مفاجئ عن المسار .. إنزلاق بزاوية خطرة .. إنذار .

تجاوزت السيارة الشاب ببضع سنتيمترات لا غير ، ودارت حوله على نحو عنيف ، والضابط يحاول السيطرة على مسارها ، وزميله يهتف :

ـ اخفض السرعة يا رجل .. اخفضها بالله عليك .

كان من الممكن أن تنزلق السيارة أكثر ، وترتطم بجدار المبنى المقابل ، لولا مهارة وبراعة الضابط ، الذى نجح فى السيطرة عليها أخيرًا ، لتتوقف على مسافة نصف المتر من الجدار ، فأطلق الضابط زفرة ملتهبة ، من أعماق أعماق قلبه ، قبل أن يهتف :

ـ حمدًا لله ..

أما زميله ، فقد انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إلى الشاب ، الذى ترنّح فى شدة ، وامتدّت يده ، وكأنما يحاول التشبث بشىء ما ، قبل أن يهوى أرضًا ، ففتح باب سيارته الدورية ، وأسرع إليه ، هاتفًا :

ـ عجبًا !.. إننا حتى لم نلمسه .

وقبل حتى أن يصل إلى الشاب ، كانت الدهشة قد زرعت نفسها فى مساحة واسعة للغاية من عقله ..

هذا لأن الشاب كان يرتدى زيًا لا يتناسب قط مع برودة الطقس الزائدة ، فهو مجرّد قميص صيفى بسيط قصير الأكمام ، وسروال من نوع (البلوجينز) الأمريكى ، وحذاء رياضى من الكاوتشوك .

وبكل دهشته ، انحنى الرجل يفحص الشاب ، فى حين لحق به الضابط ، وهو يقول فى انفعال :

ـ ماذا أصابه ؟!

أجابه زميله فى شىء من التوتر :

ـ لقد فقد الوعى ، ولا ريب فى أنه يرتجف بردًا بهذا الزى الخفيف .

انحنى الضابط يحمل الشاب ، وهو يقول :

ـ فلنسرع به إلى السيارة .. من الواضح أنه يحتاج إلى إسعاف عاجل .

تعاونا على نقله إلى السيارة ، وأجرى الضابط اتصاله بهليوكوبتر الإسعاف ، ثم التقط يد الشاب ، قائلا :

ـ دعنا لا نضع فترة انتظار وصول هليوكوبتر الإسعاف ، ولنحصل على بعض المعلومات الخاصة به .

قالها ، وألصق كف الشاب بشاشة الكمبيوتر ، وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ فحص البصمات .

استجاب الكمبيوتر للأمر على الفور ، والتقط بصمات الشاب ، وراح يراجعها مع كل البصمات المسجّلة لديه ، قبل أن يجيب بصوته الآلىّ :

ـ غير مسجّلة .

انعقد حاجبا الضابط ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بأن بصماته غير مسجّلة ؟!. كل مواطن يتم

تسجيل بصماته ، عندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره !

كرّر الكمبيوتر بنفس الصوت المعدنى الجاف :

ـ غير مسجّلة .

انعقد حاجبا الضابط أكثر ، وهم بنطق عبارة غاضبة ، عندما ربت زميله على كتفه ، قائلا :

ـ ربما لم يلتحق الشاب بأية كلية جامعية ، أو وظائف حكومية .. أنت تعلم أن القانون ينطبق على الفئتين فحسب ، بعد المشبوهين وأصحاب السوابق بالطبع ..

ثم ابتسم ، محاولا تهدئة الموقف ، وهو يستطرد :

ـ ونحن نعلم الآن أنه ليس مجرمًا على الأقل .

ندت عن الشاب تأوهات خافتة ، فالتفت إليه الاثنان فى اهتمام ، وغمغم الضابط فى انفعال :

ـ يبدو أنه يستعيد وعيه ..

كان مصيبًا فى تقديره هذا ، إذ فتح الشاب عينيه بالفعل ، وتطلّع إليهما فى توتر متهالك ، وهو يقول :

ـ ماذا حدث ؟!.. أين أنا ؟!

أجابه الضابط :

ـ اطمئن .. إننا دورية الشرطة المتجوّلة .. لقد عثرنا عليك ، و ..

قاطعه الشاب فى دهشة بالغة :

ـ الشرطة ؟!.. ما هذا الزى الذى ترتديانه إذن ؟!

تبادل الرجلان نظرة حائرة ، قبل أن يجيبه الآخر :

ـ إنه زى الشرطة التقليدى ، الذى يتم استخدامه منذ عام ألفين وثلاثة ، طبقًا لتعديلات قانون الـ ..

اتسعت عينا الشاب ، وقاطعه هاتفًا فى ذعر :

ـ ألفين وثلاثة ؟!.. فى أى عام نحن إذن ؟!

تبادل الرجلان نظرة دهشة أخرى ، قبل أن يجيبه أحدهما فى حذر :

ـ إننا فى الدقائق الأولى من عام ألفين وإحدى عشرة .

اتسعت عينا الشاب عن آخرهما ، حتى بدتا وكأنهما ستقفزان فى محجريهما ، وهو يهتف فى ارتياع :

ـ ألفين وإحدى عشرة .. رباه !.. إذن فقد نجح الاختراع .. لقد نجح .

انعقد حاجبا الضابطين فى توتر شديد ، وسأله أحدهما :

ـ أى اختراع يا فتى ؟!

تهالك جفنا الشاب ، وهو يجيب :

ـ الآلة .. آلة الزمن .

ثم انهار فاقد الوعى مرة أخرى ، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها صوت هليوكوبتر الإسعاف ، التى تقترب من المكان ..

فقد وعيه ، وقد ترك خلفه فى هذه المرة لغزًا .

لغزًا مدهشًا ..

* * *

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا بعد ، عندما انبعث صوت الهاتف الآلى ، المتصل بجهاز الكمبيوتر ، فى حجرة نوم مفتش المباحث (منير حلمى) ، قائلا بذلك الأداء الجاف :

ـ مكالمة هامة .. إدارة الشرطة .. أولوية قصوى .. حتمية استيقاظ .

تكررّ النداء ثلاث مرات ، قبل أن يفتح (منير) عينيه ، ويتمتم فى ضيق مجهد :

ـ فليكن .. لقد استيقظت .. صلنى بالمتحدّث .

توقّف النداء على الفور ، وتلاشت التعليمات الأساسية من شاشة الكمبيوتر ، لتظهر صورة مدير المباحث ، وهو يقول :

ـ هيا .. استيقظ يا (منير) .. لدى مهمة عاجلة لك .

هبّ (منير) من فراشه ، وهو يلعن هذه النظم الإليكترونية الحديثة ، التى تتيح للمتحدّث رؤية محدّثه ، عبر أجهزة الهاتف المرئية ، ورفع خصلات شعره المتناثرة بأصابعه فى توتر ، وقال :

ـ معذرة يا سيّدى ، ولكننى أويت إلى الفراش منذ نصف الساعة فحسب ، و ...

قاطعه المدير فى حزم :

ـ أعلم هذا يا (منير) .. ولكن المهمة التى لدى لا يصلح لها سواك .

ردّد (منير) فى دهشة :

ـ لا يصلح لها سواى ؟!.. ما طبيعة هذه المهمة بالضبط ؟

تنهّد المدير ، مجيبًا :

ـ لست أدرى .. لا يمكننا تصنيفها بالتحديد ، ولكنها تتناسب مع اهتماماتك العلمية ، وبرامج الكمبيوتر التى تطالعها باستمرار .

ثم اعتدل ، مستطردًا فى اهتمام :

ـ منذ ثلاث ساعات تقريبًا ، عثرت إحدى دورياتنا المتجولة على شاب يرتدى زيًا صيفيًا ، فى هذا الطقس الشديد البرودة ..

غمغم (منير) بشىء من السخرية :

ـ وهل فحصوا قواه العقلية ؟

تجاهل المدير هذا التعليق ، وهو يواصل .

ـ كان الشاب فاقد الوعى ، ومجهدًا إلى حد كبير ، وعندما استعاد وعيه لحظات ، أبدى دهشة بالغة ، أقرب إلى الذهول ، لكوننا فى بداية عام ألفين وإحدى عشرة ، ثم عاد يفقد وعيه ، ولكن بعد أن ذكر شيئًا عن آلة زمن ..

شحذت العبارة الأخيرة حواس (منير) فى شدة ، وطردت من ذهنه كل أثر للتعب أو النعاس ، وهو يعتدل مرددًا :

ـ آلة زمن ؟!

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ لقد أدهش هذا ضابطى الدورية أيضًا ، ولكنهما سلّما الشاب لهليوكوبتر الإسعاف ، ثم أرسلا بوساطة كمبيوتر السيارة تقريرًا عن الموقف ، نقل الحيرة والدهشة إلينا أيضًا ، وأثار سخرية زميلك (ماهر سليمان) ، الذى قرّر أن يتولى التحقيق فى الأمر ، فأسندت إليه هذه المهمة ، واتجه مباشرة إلى مستشفى المعادى العسكرى ، حيث تم نقل الشاب ، ليراجع تقارير الأطباء ، ويستجوبه إن أمكن .

سأله (منير) فى شغف شديد :

ـ وهل فعل ؟

أومأ المدير برأسه إيجابًا ثانية ، وهو يقول :

ـ نعم .. تقارير الأطباء أكّدت أن الشاب يتمتّع بحالة صحية جيّدة ، ولكنه مرهق ، ويحتاج إلى بعض النوم فحسب ، حتى يستعيد قوته ونشاطه ، ولكن الشاب استيقظ لبعض الوقت ، فتحدّث معه (ماهر) ، ويبدو أنه عامله بشىء من القسوة والحدة ، حتى أن الأطباء قد تدخّلوا ، وأصرّوا على إيقاف التحقيق ، حرصًا على صحة الشاب .

سأله (منير) ، وقد بلغ شغفه وفضوله مبلغهما :

ـ وما الذى أثار غضب (ماهر) ، حتى يتعامل معه بالقسوة والحدة ؟

أشار المدير بيده ، مجيبًا :

ـ القصة التى رواها الشاب بالتأكيد ، فأنت تعلم أن (ماهر) جادّ صارم ، لا يميل إلى تصديق كل الأمور المتعلّقة بالعلوم الحديثة أو الغيبيات ، أو الخوارق الطبيعية ، وعندما يستمع إلى شاب يدّعى أنه أتى من زمن آخر ، فمن الطبيعى أن ..

هتف (منير) فى انبهار :

ـ من زمن آخر ؟!

ثم انتبه إلى أن أسلوبه هذا يفتقر إلى اللياقة ، فاستدرك بسرعة :

ـ معذرة يا سيّدى ، ولكن الأمر أثارنى بشدة ، حتى أننى لم أتمالك نفسى .

هزّ المدير رأسه متفهمًا ، قبل أن يقول :

ـ أعلم هذا يا (منيـر) .. أعلم هذا .. اهتماماتك العلمية ، وشغفك بروايات الخيال العلمى يجعلان هذه القضية شديدة الإثارة بالنسبة لك ، ولهذا رشحتك لها .

أجابه (منير) فى حماس :

ـ سأذهب إلى مستشفى المعادى العسكرى على الفور يا سيّدى .

ثم تراجع بنفس السرعة ، قائلاً فى قلق :

ـ ولكننى أخشى أن يغضب (ماهر) ، ويتصور أننى انتزعت منه قضية .

أجاب المدير على الفور :

ـ ومن قال إنك ستنتزعه منها ؟!

أطلت نظرة حائرة من عينى (منير) ، فتابع المدير فى حزم :

ـ الواقع أنكما ستعملان معًا فى هذه القضية .

هتف (منير) فى دهشة مستنكرة :

ـ أنا و (ماهـر) ؟!.. وفى هذه القضيـة بالذات ؟!.. إننا لن نتفق أبدًا !

أجابه المدير فى صرامة :

ـ بالضبط .. لن يمكنكما أن تتفقا أبدًا ؛ لأن (مـاهر) متحامل بشدة على الأمر ، ويرفض الاعتراف بفكـرة السفر عبر الزمـن ، فى حين تتحمّس لها أنت للغاية ، وتؤمن بإمكانية حدوثها تمامًا ، وأخشى أن ينفرد أحدكما بالقضية ، فتدفعه عواطفه إلى اتخاذ مسار مخالف لواقع الأمور ، لذا فقد وضعتكما معًا فى سلة واحدة ، لخلق التوازن المطلوب ، فى معالجة مثل هذه الأمور .

مطّ (منير) شفتيه بعدم رضا ، وهو يغمغم :

ـ قرار حكيم يا سيّدى .

ابتسم المدير ، لأن (منير) نسى أن شاشة الهاتف المرئى تنقل إنفعاله الحقيقى فى وضوح ، وقال :

ـ أقدميتك تفوق أقدمية (ماهر) ، بسبب الوسام الذى حصلت عليه من السيّد وزير الداخلية ، بعد نجاحك فى حل قضية الساحر ، وهذا يعنى أنك ستصبح ، من الناحيـة الرسمية ، رئيس الموقف كله ، ولكننى أطالبك بألا تستغل هذا فى كبت آراء (مـاهر) .. اتركه يقول كل ما يحلو له ، فقد يفيدك هذا كثيرًا فى النهاية .. هل تفهمنى ؟

غمغم (منير) :

ـ أفهمك جيدًا يا سيّدى .

ابتسم المدير ثانية ، وهو يقول :

ـ هيا .. انطلق إذن لتبدأ مهمتك يا رجل .. وفّقك اللّه (سبحانه وتعالى) .

انتهى الاتصال ، واختفت صورة المدير من شاشة الكمبيوتر ، فشدّ (منير) قامته ، وغمغم فى حنق :

ـ أنا و (ماهـر) فى قضيـة واحـدة ؟!.. يبدو أن الساعات القادمة ستكون أسوأ ساعات عمرى بالفعل .

قالها ، وأطلق زفرة ملتهبة من أعماقه ، وبدأ يرتدى ملابسه ، استعدادًا للغوص فى أعجب لغز واجهه فى حياته كلها ..

لغز آلة الزمن ..

* * *

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى المفتش (ماهر) ، وهو يستقبل زميله (منير) فى قسم الطوارئ بمستشفى المعادى العسكرى ، ولوّح بذراعه فى تهكم ، قائلا بلهجة مسرحية :

ـ وفى اللحظة المناسبة بالضبط ، ظهر المنقذ الجبّار ، فتلاشت كل الأسرار ، واندلعت فى العقول النار ، و ...

انعقد حاجبا (منير) ، وهو يقول :

ـ القافية غير موزونة .

هزّ (ماهر) كتفيه ، قائلا فى سخرية :

ـ وماذا فى هذا ؟!.. كل شىء فى عصرنا هذا غير موزون .. الشعر .. الموسيقى .. الرياضة .. وحتى القراءة .. أنت مثلا مازلت تقرأ تلك السخافات ، التى كتبها (رءوف وصفى) و (نبيل فاروق) ، و (أحمد خالد توفيق) وغيرهم ، والتى لم تعد تناسب التقدُّم الذى شهده عصرنا .

أشاح (منير) بوجهه ، قائلاً فى حزم :

ـ الخيال العلمى يناسب كل العصور ، (جولى فيرن)(*) كتب رواياته فى القرن التاسع عشر ، وما زال الناس يقرءونها حتى يومنا هذا .

أجابه (ماهر) بلهجة ، هجومية مستفزة :

(*) جولى فيرن (١٨٢٨ ـ ١٩٠٥ م) : روائى فرنسى ، أبو القصص العلمى الحديث ، من أشهر رواياته (من الأرض إلى القمر) ١٨٦٥ م ، و (٢٠ ألف فرسخ تحت الماء) ١٨٧٠ ، و (حول العالم فى ثمانين يومًا) ١٨٧٣ م .

ـ الحمقى والحالمون فحسب، أما الواقعيون والعقلاء، فيقرءون الأدب الاجتماعى الجاد .

التفت إليه (منير) ، وقال فى سخرية :

ـ وماذا عنك !!.. هل تقرأ الأدب الاجتماعى الجاد مثلهم ؟

انعقد حاجبا (ماهر) ، وهو يجيب فى عصبية :

ـ أنا رجل مباحث ، لا أضيع وقتى فى تفاهات كهذه ..

غمغم (منير) فى سخرية أكثر :

ـ حقا ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (ماهر) ، وقال فى صرامة :

ـ هذه ليست قضيتنا على أية حال .. إننا هنا لاستجواب ذلك النصّاب فحسب .

أشار (منير) بسبّابته ، قائلا :

ـ لا تصدر الحكم قبل المداولة .. المتهم برىء حتى تثبت إدانته .

هتف (ماهر) مستنكرًا :

ـ إدانته ؟!.. هل ستستمع إليه ، وهو يدّعى أنه سافر عبر الزمن إلى هنا ؟!.. هل ستصدّق قصة سخيفة كهذه ؟!.. إنها لن تخدع حتى صبيًا فى العاشرة من عمره .

أجابه (منير) فى صرامة :

ـ دعنا نستجوبه أوّلا ، ثم نصدر حكمنا .

ثم اتجه إلى الطبيب المسئول ، وقال :

ـ أخبرنى أيها الطبيب .. متى يمكننا استجواب الشاب ؟.

ألقى الطبيب نظرة غاضبة على (ماهر) ، قبل أن يجيب (منير) :

ـ الشاب مستيقظ بالفعل ، ولكن اسلوب زميلك هذا ...

قاطعه (منير) :

ـ سأستجوبه بنفسى .

انعقد حاجبا (ماهر) فى غضب ، وأشاح بوجهه فى ضيق ، فتألقت عينا الطبيب فى شىء من الشماتة ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة يختلف الأمر كثيرًا .

ولم تمض دقائق معدودة ، بعد قوله هذا ، حتى كان (منير) و (ماهر) يجلسان إلى جوار فراش الشاب ، وقد لاذ الأخير بالصمت ، ومطّ شفتيه فى سخط واضح ، فى حين راح الأوّل يفحص الشاب بعينيه فى اهتمام .

كان شابًا فى أوائل العشرينات من عمره ، نحيل إلى حد ما ، شاحب الوجه ، أسود الشعر والعينين ، يبدو مرتبكًا حائرًا إلى حد ما ، وهو ينقل بصره بينهما فى حذر ، فرسم (منير) على شفتيه ابتسامة ودود ، وهو يسأله :

ـ ما اسمك يا فتى ؟!

أجابه الشاب فى سرعة وتوتر :

ـ اسمى (أشرف) .. أشرف عبد المجيد) .

سأله (منير) :

ـ وكم عمرك يا (أشرف) ؟

ازدرد الشاب لعابه فى توتر ، وهو يختلس النظر إلى (ماهر) ، مجيبًا :

ـ أنا فى الثانية والعشرين من عمرى .. أعنى أننى كذلك فى الزمن الذى أتيت منه .

ابتسم (ماهر) فى سخرية عصبية ، فى حين سأل (منير) الشاب فى رفق :

ـ هل تعنى أنك قد أتيت إلى هنا من المستقبل ، بعد اختراع آلة الزمن يا (أشرف) ؟

حدّق الشاب فى وجهه بدهشة ، قبل أن يقول :

ـ المستقبل ؟!.. أى مستقبل ؟!.. بالنسبة لكم لا يعتبر الزمن الذى أتيت منه مستقبلاً .. إنه ماض .. ماض يعود إلى ربع قرن مضى .

واتسعت عينا (منير) فى دهشة :

لقد كان ما يسمعه مفاجئًا .. ولأقصى حد .

* * *

٢ ـ الآلـة ..

لثوان ، ران علـى حجـرة الشـاب ، فـى مستشـفى المعـادى العسكرى ، صمت رهيب ، و (منير) و (ماهر) يحدقان فى وجهه بدهشة بالغة ، قبل أن يقول الآخير فى حدة :

ـ كلاّ .. هذا يتجـاوز الحدود .. إنك حتى لم تحاول أن تتقن عملية التصب السخيفة هذه .. كيف يمكنك أن تـأتى إلينا فى آلـة زمن من الماضى ، ونحـن لم نسمع عن شىء كهذا فى حياتنا كلها ؟!

ومال نحوه فى عصبية ، مستطردًا :

ـ ثم أين آلة الزمن المزعومة هذه ؟!.. أين أخفيتها ؟ وكيف قدتها إلى هنا ؟!

تراجع الشاب فى ذعر ، هاتفًا :

ـ لست أدرى.. أقسم لك لست أدرى .. أنا أيضًا أشعر بالدهشـة والحيرة ، لأنكم لم تسمعوا عن آلة الزمن هذه ، على الرغم من أن وجودى هنا دليل أكيد على نجاحها .

صاح (ماهر) فى وجهه :

ـ دليل أكيد ؟!.. أما زلت تصرّ على ...

قاطعه (منير) بإشارة من يده ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كفى يا (ماهر) .. إنك ترهب الفتى بأسلوبك هذا ، وتمنعه من الإدلاء بما لديه ..

انعقد حاجبا (ماهر) فى شدة ، وهو يقول فى عصبية شديدة :

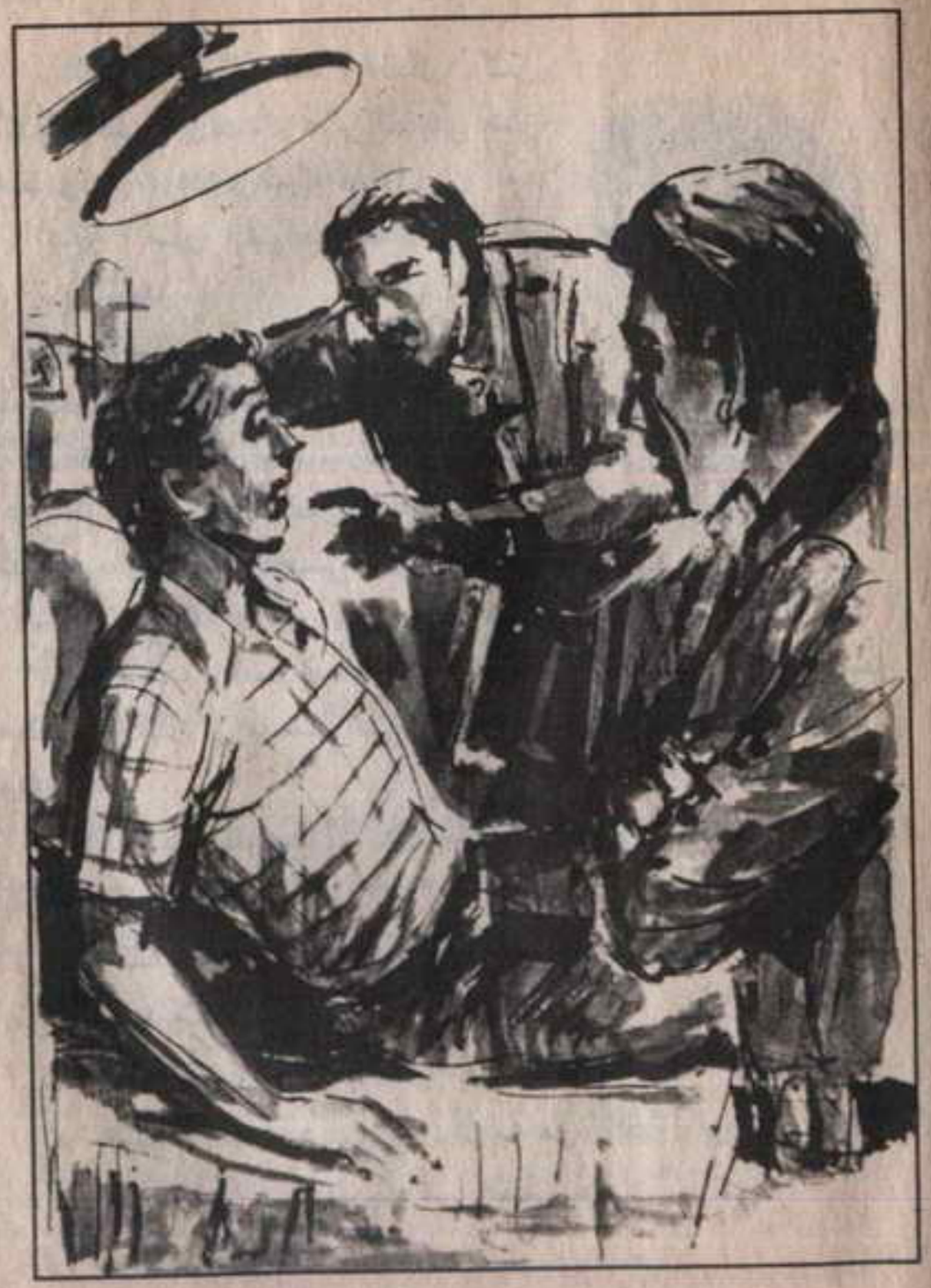

ـ فليكن يا أستاذ العلم والخيال .. لن أتفوّه بحرف واحد ، حتى تنتهى من استجوابه .. هل يرضيك هذا ؟

أجابه (منير) فى صرامة :

ـ بالتأكيد .

ثم التفت إلى الشاب المذعور ، مستطردًا بلهجة مختلفة :

ـ اهدأ يا (أشرف) .. لا داعى لكل هذا التوتر والقلق .. نحن لا نتهمك بأى شىء .. إننا هنا لنلقى عليك بعض الأسئلة لاستيضاح الأمر فحسب .. اهدأ.

أومأ الشاب برأسه إيجابًا فى توتر ، فربّت (منير) على كتفه مطمئنًا ، قبل أن يرسم على شفتيه نفس الابتسامة الودود ، ويقول :

ـ قل لى يا (أشرف) : هل يمكنك أن تروى لنا كيف وصلت إلى هنا ؟.

ازدرد الشاب لعابه ، قبل أن يومئ برأسه إيجابًا ، ويتمتم فى صوت شديد الخفوت والتوتر :

ـ بالتأكيد يا سيّدى .. بالتأكيد .

ثم اعتدل فى مجلسه ، وازدرد لعابه مرة ثانية ، واختلس نظرة أخرى إلى (ماهر) ، وتنحنح فى اضطراب ، و ...

وبدأ يروى القصة ..

* * *

« آلة زمن ؟!.. » .

نطق مدير مركز البحوث العلمية الكلمة فى لهجة عجيبة ، تجمع ما بين الدهشة والسخرية والاستنكار ، وهو يحدّق فى وجه الدكتور (هاشم حداد) ، قبل أن تنطلق من أعماقه ضحكة مجلجلة ، ويكمل فى سخرية :

ـ ماذا أصابك يا دكتور (هاشم) ؟!. فكّر بواقعية يا رجل .. آلة الزمن هذه مجرّد خرافة ، تفيد صانعى السينما بأكثر مما تفيد العلماء .

بدا الغضب على وجه الدكتور (هاشم) ، وهو يشير إلى الملف الذى وضعه أمام مدير المركز ، قائلا :

ـ آلة الزمن ليست خرافة يا سيادة المدير .. (أينشتين) تنبأ بوجودها ، فى معادلاته الخاصة بالزمن(*) ، ولو أنك راجعت معادلاتى ، التى عدّلت معادلات (أينشتين) ، لوجدت أنه من الممكن جدًا أن ..

قاطعه المدير ، وهو يزيح الملف جانبًا :

(*) ألبرت أينشتين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ م) : عالم فى الفيزياء النظرية ، من أصل ألمانى ، عاش فى (أمريكا) ، ووضع أسس النظرية النسبية العامة والنسبية الخاصة ، وحصل على جائزة (نوبل) فى الفيزياء عام ١٩٢١ م ، ومعادلاته الرياضية تحدّد العلاقة بين الجاذبية والزمن والفراغ .

- المعادلات شىء والواقع شىء آخر يا دكتور (هاشم) . ربما كان السفر عبر الزمن ممكنًا ، ولكن أحدًا لن يتوصَّل إليه فى زمننا هذا .. من أين يمكنك أن تأتى بالطاقة اللازمة لتسيير آلة كهذه ؟!

هزَّ الدكتور (هاشم) رأسه ، قائلاً :

- الأمر لا يحتاج إلى طاقة هائلة كما تتصوَّر ، فالسفر عبر الزمن يتمّ من خلال التغلغل فى الأبعاد . بحيث نصل إلى منطقة الصفر الزمنى ، ومنها يمكننا الانطلاق إلى أية نقطة نشاء .

ابتسم مدير المركز فى سخرية ، قائلاً :

- وهذا التغلغل فى الأبعاد ، ألا يحتاج إلى طاقة !

أشار الدكتور (هاشم) بكفيه ، مجيبًا :

- طاقة عادية .. نفس الطاقة التى تكفى لتشغيل آلة من آلات المصانع الكبيرة ، فطبقًا للتصميمات التى وضعتها ، لن تتحرك آلة الزمن من موضعها قيد أنملة ، وكل ما ستفعله هو أنها ستعمل على إبدال الأقطاب بسرعة كبيرة ، بحيث تصنع فيما حولها مجالاً كهرومغنطيسيًا ، يتعاظم حتى يشقَّ الحاجز بين الأبعاد ، ويدفعها نحو منطقة الـ ..

قاطعه المدير فى صرامة هذه المرة :

- كفى يا دكتور (هاشم) .. أحلامك هذه قد تبدو طريفة وأنيقة ، لو تم وضعها فى رواية من روايات الخيال العلمى ، ولكن فى مكان كهذا ، وفى عام ألف وتسعمائة وخمسة وثمانين ، فهى تبدو لى سخيفة للغاية .

احتقن وجه الدكتور (هاشم) ، وهو يقول :

- سخيفة ؟!.. إننى أتحدث عن آلة زمن يا سيادة المدير .. عن واحد من أقوى الأسلحة ، التى يمكن استخدامها ، فى أى زمان ومكان .. هل يمكنك أن تتخيَّل ما يمكن أن يحدث ، لو اخترعتها جهة معادية ، وقرَّرت إرسال فرقة من الكوماندوز مثلاً ، لاحتلال زمن الفراعنة ، والسيطرة على حضارتنا كلها منذ منشئها .

تراجع المدير فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول فى برود :

- أنا واثق من أن هذا لن يحدث أبدًا .

قال الدكتور (هاشم) فى حدة :

- لا يمكنك أن تثق هكذا .

اعتدل المدير فى حركة حادة ، وهو يقول :

- بل يمكننى أن أثق تمام الثقة ، فلو تم اختراع آلة الزمن بالفعل ، فما الذى منع مخترعيها من العبث بالزمن ، وتغييره كيفما يحلو لهم ؟

انعقد حاجبا الدكتور (هاشم) ، وهو يقول :

- ومن أدراك أنهم لم يفعلوا ؟

لوَّح المدير بذراعه كلها ، وهو يجيب :

- لأن كل ما حولنا يبدو موزونًا ومتوازنًا ، على نحو يؤكد أن

يدًا بشرية لم تمتد إليه بالتبديل أو التغيير ، وأن الزمن كله فى قبضة الله (سبحانه وتعالى) وحده .

انعقد حاجبا (هاشم) مرة أخرى ، وهرش رأسه ، مغمغمًا :

ـ منطق معقول .

هتف المدير :

ـ أرأيت ؟!.. أى تحليل منطقى يمكن أن يقودك فى بساطة إلى استحالة وجود آلة زمن .

قال (هاشم) فى حدة :

ـ لا توجد استحالة .. إنه مجرد تعارض منطقى ، يحتاج إلى إعادة النظر فى المعادلات .

قال المدير فى صرامة :

ـ بل فى الأمر كله .. وبمنتهى الصراحة ، لا يمكننى قط أن أوافق على الاعتماد المالى ، الذى طلبته لصنع خرافتك هذه .. لا يمكننى حتى من الناحية الإدارية الموافقة على اعتماد مليون جنيه دفعة واحدة لعمل واحد ، مهما كان .

عاد وجه الدكتور (هاشم) يحتقن فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ وماذا لو عثرت على مموّل آخر ؟

هزّ المدير كتفيه فى لا مبالاة ، قائلاً فى سخرية :

ـ هذا لن يغضبنا .. ثق بهذا .

تضاعف الغضب فى وجه الدكتور (هاشم) وصوته ، وهو يقول فى حدة :

ـ فليكن .. أنتم الخاسرون .

ولكنه غادر الحجرة وهو يرتجف غضبًا وانفعالاً ، ولم يتوقف عن ارتجافته هذه ، حتى وهو يروى كل ما حدث بالتفصيل ، لسكرتيره الشاب (أشرف) ، الذى استمع إليه فى اهتمام شديد ، قبل أن يقول :

ـ ولماذا لا تبحث عن مموّل آخر بالفعل ؟

تنهّد الدكتور (هاشم) فى مرارة ، وهو يقول :

ـ كيف يا (أشرف) ؟!.. كيف ؟!..

الأمل الوحيد كان فى مركز البحوث ، بكل من فيه من عقول علمية متفوقة ، يمكنها استيعاب فكرة معقدة كهذه ، ولو أنهم عجزوا عن استيعابها وفهمها ، فمن سيمكنه هذا ؟!

أجابه (أشرف) فى حماس :

ـ هذا يتوقف على وسيلة عرض الفكرة .

سأله (هاشم) فى حيرة :

ـ ماذا تعنى ؟!. هل أبتكر وسيلة جديدة لتبسيط النظرية مثلا ؟!

هزّ (أشرف) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ بل أن تجد وسيلة مغرية ومثيرة لطرح فكرتك .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى حماس واضح :

ـ فلتكف مثلاً عن التحدث عن العواقب السياسية لاختراع آلة الزمن ، ولنتحدث أكثر عن الفوائد الاقتصادية لها .

تطلّع إليه الدكتور (هاشم) فى حيرة ، قائلا :

ـ أية فوائد اقتصادية ؟!

اعتدل (أشرف) فى مجلسه . وتضاعف حماسه ، وهو يجيب :

ـ تخيّل رجلا يسافر إلى الماضى . ويشترى كل الأراضى ، التى ستصبح فيما بعد منطقة (مصر الجديدة) ، أو (مدينة نصر) أو (العجمى) ، أو (المعمورة) مثلا ، إنه سيستطيع شراء كل هذه المناطق مجتمعة بثمن قطعة أرض صغيرة فى (أسوان) فى زمننا الحالى ، ولكنه عندما يعود إلى زمننا هذا سيجد نفسه أغنى أغنياء الأرض منذ زمن (قارون)(*)

برقت عينا الدكتور (هاشم) ، وهو يستمع إلى سكرتيره ، وهتف فى انبهار :

ـ رباه .. كيف لم أفكّر فى الأمر على هذه الصورة من قبل ؟

أجابه (أشرف) بسرعة :

(*) قارون : رجل من قوم (موسى) ، كان واسع الثراء عظيم الغنى ، اغتر بنفسه اعتدادا طغى به على الناس ، ونسى به فضل الله (سبحانه وتعالى) فخسف الخالق (عزّ وجلّ) به الأرض ، وجعله عبرة للمعتبرين

ـ لأن العلم وحده يشغل ذهنك يا دكتور (هاشم) .

أومأ (هاشم) برأسه إيجابا ، وهو يتمتم :

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد ..

تمتم بالكلمة والفكرة تتعاظم فى رأسه ، وتتخذ أبعادا جديدة .. وعجيبة ..

* * *

تهالك جفنا الشاب فوق عينيه ، وتوقّف عن سرد قصته ، وران على الحجرة صمت تام لثوانى أخرى ، قبل أن يبتسم (ماهر) فى سخرية ، قائلا :

ـ قصة طريفة بحق .. أشعر برغبة قوية فى التصفيق إعجابا .

رمقه (منير) بنظرة معاتبة غاضبة ، قبل أن يلتفت إلى الشاب ، ويسأله فى رفق :

ـ وهل نجحت هذه الفكرة الجديدة ؟

أومأ الشاب برأسه فى تهالك شديد ، وهو يغمغم :

ـ بالطبع .. لقد اعتمدت فى إقناع الممول على الطمع الطبيعى ، فى أعماق كل تاجر ثرى .. كيف يمكن لشخص ما أن يقاوم فكرة كهذه ، يمكنها أن تضاعف ثروته ألف مرة فى وقت محدود ؟!

قال (منير) فى اهتمام :

ـ إذن فقد عثرتم على الممول .

أومأ الشاب برأسه فى صعوبة ، وأغلق عينيه تمامًا ، وهو يهمس بصوت يغلب عليه التعب والإرهاق :

ـ نعم .. عثرنا عليه ، واقتنع تمامًا بالفكرة .

قال (منير) فى شغف :

ـ ثم ماذا ؟!

طال انتظاره لجواب الشاب ، الذى صمت تمامًا ، وانتظمت أنفاسه فى هدوء ، فمط (ماهر) شفتيه ، وابتسم فى سخرية ، قائلا :

ـ لقد استغرق فى النوم .

اعتدل (منير) فى مجلسه ، وتطلع إلى الشاب لحظة ، قبل أن يقول :

ـ من الواضح أنه مجهد للغاية ، والساعة تتجاوز الخامسة صباحًا الآن ، ومن حقه أن ينعم بقسط من الراحة .

قالها ، ونهض يغادر الحجرة ، فتبعه (ماهر) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل ستكتفى بهذا القدر من الاستجواب ؟!

هز (منير) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ كلا بالطبع ، ولكن الشاب مستغرق فى النوم ، وليس أمامنا ما نفعله معه حتى يستيقظ .

قال (ماهر) فى سخرية متوترة :

ـ لا تقل لى إنك تصدق روايته هذه .

صمت (منير) لحظات ، ثم قال :

ـ إنها تحمل بعض الحقيقة على الأقل .

هتف (ماهر) مستنكرًا :

ـ حقيقة ؟!.. أية حقيقة ؟!

أجابه (منير) ، وعقله يسبح فى لجة من الأفكار :

ـ ذلك الجزء الخاص بالدكتور (هاشم حداد) .

قال (ماهر) فى حدة :

ـ وما أدراك أن هذا الجزء حقيقى ؟

التفت إليه (منير) ، وأجابه فى حزم :

ـ ليس لدى أدنى شك فيه ، لأننى أعرف أن الدكتور (هاشم) شخصية حقيقية ..

ارتفع حاجبا (ماهر) لحظة فى دهشة ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ هذا لا يثبت شيئا .. النصابون دائمًا أذكياء ، ويجيدون التخطيط والإعداد لعملياتهم .. ربما قرأ ذلك الشاب شيئًا عن الدكتور (هاشم) هذا ، واخترع بعدها القصة كلها .

هز (منير) كتفيه ، وهو يقول فى بساطة :

ـ هذا أمر يمكن التأكد منه .

سأله (ماهر) فى حذر :

ـ كيف ؟

تطلّع (منير) إلىعينيه لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ بسؤال الدكتور (هاشم) نفسه :

اتسعت عينا (ماهر) فى دهشة ، عندما ألقى (منير) جوابه هذا ، فهو لم يكن يتوقّع أن الرجل الذى نسب الشاب إليه اختراع آلة الزمن ما زال على قيد الحياة ..

لم يتوقّع هذا قط ..

* * *

رفع الدكتور (هاشم حدّاد) عينيه فى بطء ، يتطلّع إلى (منير) ، و (ماهر) بنظرة حذرة متوترة ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. أنا الدكتور (هاشم حدّاد) .. ماالذى تريدانه منى بالضبط ؟

شعر (ماهر) بشىء من الإحباط ، وهو يتفحّص الرجل ، الذى بدا على هيئة تختلف تمامًا عما توقّعه ، فهو ممتلئ الجسم إلى حد ما ، أشيب الشعر ، أشعثه ، نمت لحيته على نحو يشفّ عن عدم عنايته بنفسه ، وبدت حلته رثة ، مما يوحى بفقره وقلة موارده ، على الرغم من الفيلا التى يقطنها ، فى مدينة السادس من أكتوبر ، والتى يقيم فيها وحيدًا منعزلاً من عدة سنوات ..

أما (منير) ، فأجاب سؤال الدكتور (هاشم) فى هدوء :

ـ إننا نرغب فى التحدّث معك قليلا ، بشأن مصاب فى مستشفى القوات المسلّحة بالمعادى ، يصرّ على أنك تعرفه شخصيًا .

انعقد حاجبا الدكتور (هاشم) فى شدة ، وهو يقول :

ـ لست أعرف أى مصابين أو أصحاء .. إنه كاذب ولا شك .

قال (ماهر) فى سرعة :

ـ إننى أتفق معك فى الرأى .

أشار إليه (منير) بالصمت ، وهو يسأل الدكتور (هاشم) فى حرص :

ـ إنك تقيم وحدك هنا يا دكتور (هاشم) .. أليس كذلك ؟

مطّ الدكتور (هاشم) شفتيه ، وكأنما لا يروق له تدخّل الآخرين فى شئونه ، وهو يجيب فى اقتضاب :

ـ بلى ..

سأله (منير) بنفس الحرص :

ـ منذ متى ؟

بدا الضيق على وجه الدكتور (هاشم) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أأنا مضطر لإجابة هذا السؤال ؟

تنهّد (منير) ، وشدّ قامته فى حزم ، وهو يجيب :

ـ أخشى أن الجواب هو نعم .

مطّ الدكتور (هاشم) شفتيه ، وانعقد حاجباه أكثر ، وهو يجيب :

ـ إننى أقيم هنا منذ عامين فحسب ، فقد ورثت الفيلا عن عمى ، الذى رحل مؤخرًا ، وكان هذا أمرًا جيدًا بالتأكيد ، فمنذ احترق منزلى ، عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين ، وأنا أتنقل من مكان إلى آخر .

سأله (منير) :

ـ وما سبب احتراق منزلك ؟!

ازداد انعقاد حاجبى الرجل ، وهو يجيب فى حدة :

ـ لست أذكر .. لقد حدث هذا منذ ربع القرن ، ومن العسير على شخص مثلى ، فى الخامسة والخمسين من عمره ، أن يتذكر تفاصيل مضى عليها نصف قرن كامل .

قال (ماهر) متعاطفًا :

ـ بالطبع .. بالطبع يا دكتور (هاشم) .. هذا أمر طبيعى من المؤسف حقًا أن يفقد المرء مسكنه بهذه الوسيلة البشعة ، ولكن الله (سبحانه وتعالى) عوّضك عنه بهذه الفيلا الأنيقة .. لا ريب فى أنها تساوى ثروة الآن .

مطّ الدكتور (هاشم) شفتيه مرة أخرى ، وهزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. العناية بها وحدها تلتهم دخلى المحدود كله ، فما بالك بثمنها ؟!

ابتسم (ماهر) ، وهم بقول شىء ما ، لولا أن سبقه (منير)، وهو يقول :

ـ ما رأيك فى محاولة لإنعاش الذاكرة ؟

التفت إليه الدكتور (هاشم) ، قائلاً فى حيرة :

ـ محاولة لإنعاش الذاكرة ؟!.. ماذا تقصد يا رجل ؟!

أجابه (منير) فى هدوء :

ـ نريد أن تصحبنا لتتعرّف المصاب فى المستشفى .

قال الدكتور (هاشم) فى حدة :

ـ قلت لك : إنه لا صلة لى بأى مصابين ، ولا ...

قاطعه (منير) فى صرامة :

ـ أخشى أن هذا إجراء حتمى .

تطلّع إليه الرجل لحظة فى غضب ، ثم لم يلبث أن غمغم :

ـ فليكن .. ما دمت مضطرًا .

حملت سيارة (منير) ثلاثتهم إلى (القاهرة) ، وفى الطريق سأل الدكتور (هاشم) فى حذر مدروس :

ـ قل لى يا دكتور (هاشم) : أما زلت تذكر نظريتك الخاصة بصنع آلة الزمن ؟

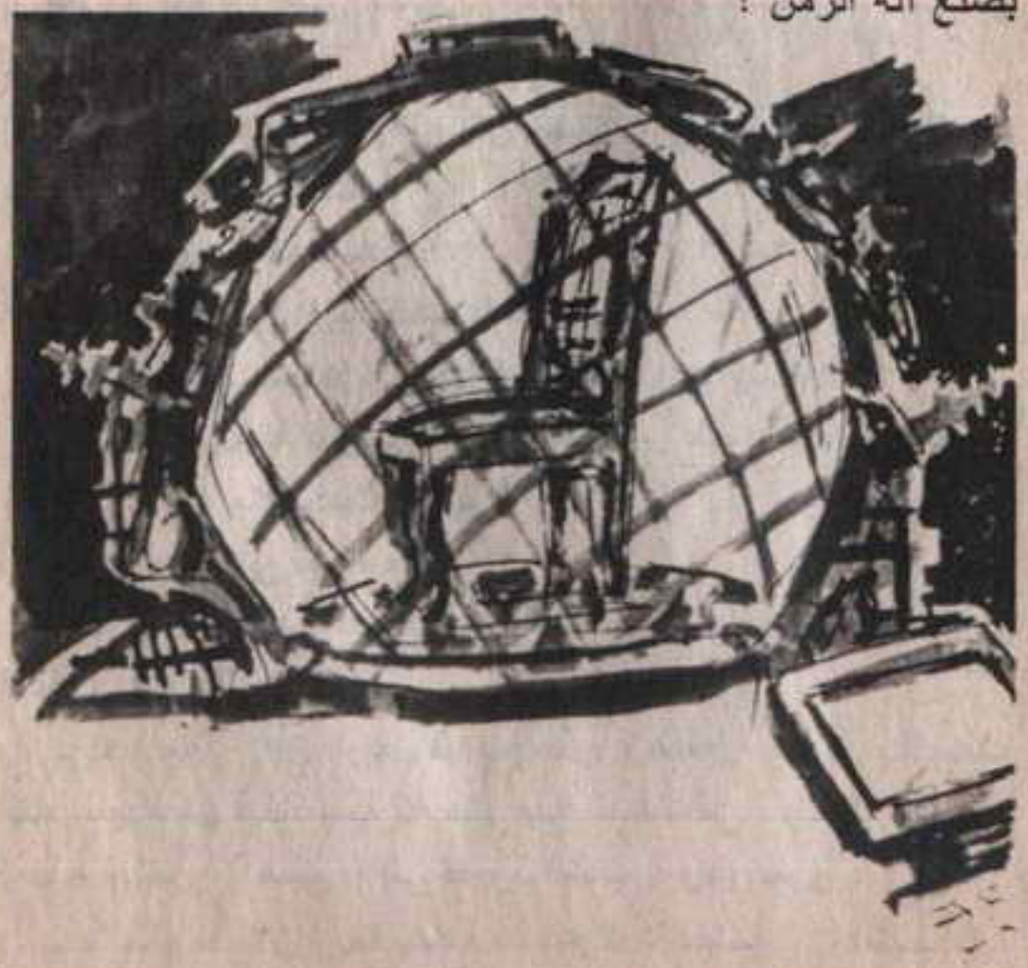

انعقد حاجبا الرجل فى شدة ، وهو يجيب فى عصبية :

ـ لست أرغب فى التحدث عن هذا الأمر .

تجاهل (منير) قوله وهو يتابع :

ـ إننى أذكر الضجة التى حدثت عندئذ ، عندما أعلنت أنك قد صنعت أول آلة زمن حقيقية .. كنت آنذاك فى الخامسة من عمرى ، ولم أفهم ما يعنيه الأمر إلا عندما طالعت الصحف القديمة ، عندما بلغت الثامنة عشرة من العمر ، وأثارت القصة اهتمامى بشدة .

ألقى (ماهر) على الدكتور (هاشم) نظرة مستنكرة ، قبل أن يقول :

ـ من الواضح أن الأمر لم يكن حقيقيًا ، وإلا لكانت آلة الزمن بيننا الآن .. أليس كذلك ؟

قال الرجل فى حدة شديدة :

ـ قلت : إننى لا أريد التحدُث عن هذا .

ومرة أخرى ، تجاهل (منير) ثورته ، وهو يسأله :

ـ لماذا لم ينعقد المؤتمر الصحفى ، الذى طلبت عقده يا دكتور (هاشم) ؟!.. ماذا حدث أيامها ؟

صاح الرجل فى ثورة حقيقية :

ـ قلت : لا أريد التحدث عن هذا .. ألا تفهمون ؟!.. لا أريد التحدُث عنه قط .

أدرك (منير) أن الرجل قد بلغ الذروة بالفعل ، فلاذ بالصمت التام ، وواصل قيادة سيارته حتى بلغ المستشفى ، وهناك قاد مع زميله الدكتور (هاشم) إلى حجرة الشاب ، وهو يقول :

ـ ما ستراه الآن ربما يصدم مشاعرك يا دكتور (هاشم) ،

ولكننى أريد منك أن تتماسك ، وأن تتأكد من الموقف تمامًا ، قبل أن تدلى بأى رأى فيه .

بدا التوتر على الرجل ، وهو يسأل :

ـ لماذا ؟!.. ما الذى سأراه بالضبط ؟

أجابه (منير) ، وهو يفتح باب الحجرة :

ـ ستعرف الآن .

قالها ، ودفع العالم داخل حجرة الشاب فى رغق ، وهو يتطلع إلى وجهه فى اهتمام ، لمعرفة رد فعله الفورى ..

ولثوان ، تطلع الدكتور (هاشم) إلى الشاب دون أى انفعال ، ثم انتفض جسده فجأة فى عنف ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهو يميل برأسه إلى الأمام ، وكأنما يملأ بصره أكثر وأكثر بصورة الشاب النائم ، قبل أن يهتف بانفعال جارف :

ـ (أشرف) ؟!.. ولكن هذا مستحيل !.. مستحيل !

وفى رأى (منير) ، كان هذا الانفعال بمثابة دليل .. دليل لا يرقى إليه الشك .

* * *

٢ ـ الزمن ..

لم يتوقّف جسد الدكتور (هاشم) عن الارتجاف لفترة طويلة ، حتى أنه عجز عن الإمساك بقدح الشاى ، الذى أحضره (منير) ، وراح يردّد فى انفعال شديد :

ـ مستحيل !.. مستحيل أن يكون هذا (أشرف) !.. لقد لقى (أشرف) مصرعه ، منذ ربع القرن .

قال (ماهر) فى حماس ، موجّهًا حديثه إلى (منير) :

ـ ألم أقل لك ؟

أشار إليه (منير) بيده ، ولكنه واصل فى انفعال :

ـ ألم تسمع ما قال الرجل .. (أشرف) الحقيقى لقى مصرعه منذ ربع القرن .. هذا الموجود ليس سوى نصّاب حقير .

انتفض جسد الدكتور (هاشم) ، وهو يقول :

ـ أنا لم أقل هذا ..

ثم استدرك فى سرعة :

ـ أعنى أن الأمر مُريك بحق ، وإلى حد كبير ، فالمفترض أن (أشرف) الحقيقى قد لقى مصرعه ..

همّ (ماهر) بقول شىء ما ، ولكن (منير) استوقفه ، وهو يسأل الدكتور (هاشم) :

ـ ماذا تعنى بكلمة (المفترض) هذه ؟

أطلّت الحيرة من عينى الرجل فى وضوح ، وهو يتمتم :

ـ أعنى أنه لم يكن هناك تفسير آخر حينذاك .

سأله (منير) بسرعة :

ـ أى حين تعنى ؟

بدا الرجل أشدّ حيرة وشرودًا ، وهو يلوّح بيده ، متمتمًا :

ـ منذ ربع قرن .

كان من الواضح أن الرجل مرتبك بشدة ، وأن عقله المجهد عاجز عن تنظيم وتنسيق أفكاره ، فتبادل (ماهر) و (منير) نظرة سريعة ، قبل أن يربّت الأخير على كتف الدكتور (هاشم) مهدئًا ، وهو يقول فى رقّة :

ـ تمالك أعصابك يا دكتور (هاشم) .. لا شىء يدعو للتوتر والقلق .. الشاب مستغرق فى النوم فى حجرته ، ونحن نجلس وحدنا هنا ، ولا أحد سيسمع ما تقوله .

رفع الدكتور (هاشم) عينيه إليه ، وقال متوترًا :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه (منير) بنفس الرقة والهدوء:

ـ أعنى أنه يمكنك أن تشرح لنا كل ما لديك ، دون أن تخشى المقاطعة أو التعليق .. الأمر يحتاج منك إلى أن تمنحنا ثقتك ، وتروى لنا كل المختزن فى أعماقك ..

رمقه الدكتور (هاشم) بنظرة شك وقلق ، قبل أن يسأل فى حذر :

ـ ألن تسخرا منى ؟

مطّ (ماهر) شفتيه ، دون أن يجيب ، فى حين قال (منير) فى لهجة مخلصة :

ـ مطلقا .

التقط الدكتور (هاشم) نفسًا عميقًا ، وارتشف رشفة من الشاى الساخن ، قبل أن يقول :

ـ الجزء الذى رواه لكما ذلك الشاب حقيقى ، ومطابق لما حدث تمامًا .

غمغم (ماهر) فى شىء من الاستنكار :

ـ إذن فقد عثرتما على مموّل لمشروع بناء آلة الزمن الـ ...

أمسك (منير) يده فى الوقت المناسب ، قبل أن يكمل قوله ، فابتلع لسانه ، وأشاح بوجهه محنقًا ، ولكن من حسن الحظ أن الدكتور (هاشم) لم ينتبه إلى هذا ، وهو يجيب :

ـ نعم .. عثرنا على مموّل ، وافق على أن يمنحنا المبلغ المطلوب ، بشرط ألا نفصح عن اسمه قط ، ووقّع معنا عقدًا بهذا ، ثم ابتاع الشقة المجاورة لشقتى ، ووضع فيها المولّد الكهربى المطلوب ، وأعدّ كل شىء لصنع الآلة ، ولكن ..

صمت بغتة ، وهو يهزّ رأسه فى ضيق ، فسأله (ماهر) فى اهتمام أدهش (منير) :

ـ ولكن ماذا ؟!

تنهّد الدكتور (هاشم) فى عمق ، مجيبًا :

ـ ولكن واجهتنا مشكلة جديدة .. مشكلة بلا حل .

جذبت عبارته اهتمام وفضول الرجلين بشدة ، فاعتدل فى مجلسه ..

وبدأ يروى ..

* * *

امتلأت نفس (أشرف) بالحماس ، وهو يستقبل الدكتور (هاشم) فى ذلك اليوم ، فى نهاية عام ١٩٨٥ م ، هاتفًا :

ـ كل شىء على ما يرام يا دكتور (هاشم) .. كل القطع وصلت ، وتم توصيل مصدر الطاقة ، ولا ينقصنا سوى تركيب الآلة ، وبدء أوّل رحلة فى التاريخ عبر الزمن .

كان يتوقّع فرحة عارمة من العالم ، أو حماسًا مماثلًا على الأقل ، ولكنه فوجئ به يتطلّع إليه بنظرة محبطة ، ويغمغم :

ـ حقًا ؟!

لم يكن رد الفعل طبيعيًا بأى حال من الأحوال ، لذا فقد سأله (أشرف) فى قلق :

ـ ماذا حدث يا دكتور (هاشم) ؟

لوّح الرجل بكفه ، وقال وهو يلقى جسده على أقرب مقعد إليه .

ـ كارثة .

هوى قلب (أشرف) بين قدميه .

وهو يكرّر :

ـ كارثة ؟!

ثم سأله فى انزعاج شديد :

ـ ماذا حدث بالله عليك .

أخفى الدكتور (هاشم) وجهه بكفه ، وراح يتنفّس فى صمت

وانفعال لدقيقة كاملة ، بدت لـ (أشرف) أشبه بالدهر ، قبل أن يقول فى مرارة :

ـ منذ أشار مدير المركز إلى أنه من المستحيل أن تكون هناك آلة زمن ، وإلا لتدخل أهل المستقبل فى أحوال الماضى ، وهذه الفكرة تقلقنى بشدة .

قال (أشرف) فى توتر :

ـ إنها مجرد فكرة فلسفية .

تنهد الرجل ، قائلا :

ـ معظم النظريات العلمية العظيمة بدأت بلحظة تأمل فلسفية ، تعتمد على مشاهدات واقعية ، أو افتراضات منطقية ، فالعلم الحقيقى لا ينبغى أن يتعارض مع المنطق السليم أو النظرة الفلسفية للأمور .

قال (أشرف) :

ـ ولكن ما قاله مدير المركز مجرد رأى شخصى :

أشار الدكتور (هاشم) بسبابته ، قائلا :

ـ ولكنه منطقى للغاية ، حتى أننى ظللت أراجع معادلاتى طوال الأشهر الماضية ، وأعدلها .

ثم ارتجف صوته ، وهو يكمل :

ـ حتى توصلت إلى الحقيقة المخيفة .

هبطت العبارة الأخيرة على (أشرف) كالصاعقة ، فتراجع فى توتر شديد ، وهو يتمتم فى شحوب ، وبصوت باهت مختنق :

ـ أية حقيقة مخيفة ؟

هز الدكتور (هاشم) رأسه فى مرارة ، وهو يجيب بلهجة أقرب إلى البكاء :

ـ الجدوى الاقتصادية لآلة الزمن لا يمكن تحقيقها .

اتسعت عينا (أشرف) ، وهو يسأله :

ـ ماذا تعنى ؟

خلع الدكتور (هاشم) منظاره ، ومسح دموعًا خفية بمنديله ، وهو يقول :

ـ المعادلات الجديدة كلها قادتنى إلى حقيقة لا تقبل الجدل .. السفر عبر الزمن لا يمكن أن يتم إلا فى اتجاه واحد فقط .

ثم أشار بسبابته ، مستطردًا بصوت مرتجف :

ـ إلى المستقبل .

حدق (أشرف) فى وجهه لثوان ، قبل أن يقول فى خفوت شديد :

ـ لست أفهم .

دق الدكتور (هاشم) مسند المقعد بقبضته فى عنف ، وهو يهتف :

ـ أما أنا ، فكان ينبغى أن أفهم منذ البداية .

واعتدل مستطردًا فى عصبية :

ـ من الطبيعى ألا يستطيع المرء السفر عبر الزمن إلى الماضى ، فالماضى قد انقضى بالفعل ، بكل أحداثه وشخصياته وولد من ولد ، ومات من مات .. كل هذا أمر حدث وانتهى ، ولن يمكنك ـ مهما فعلت ـ أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء ، أو أن تتدخل فى

مصائر وأقدار البشر .. لست إلهًا لتفعل .. اللّه (سبحانه وتعالى) وحده يملك مفاتيح القدر ، ولا راد لقضائه قط .

شحب وجه (أشرف) ، وهو يتراجع قائلا :

- أتعنى أن السفر عبر الزمن ليس ممكنا ؟

هتف الدكتور (هاشم) فى سرعة :

- بل هو ممكن ، ولكن ليس بالصورة التى يصورونه بها فى كتب وأفلام الخيال العلمى .. إنه أبسط من هذا بكثير .. إنك تستطيع السفر عبر الزمن إلى المستقبل ، ولكن ليس إلى الماضى .. هذا لأن السفر عبر الزمن ليس سوى وسيلة لتجاوز حاجز الزمان والمكان ، عبر ثغرة بين الأبعاد .

أطلت من عينى الشاب حيرة شديدة ، وهو يغمغم :

- معذرة يا دكتور (هاشم) .. لا يمكننى فهم شىء مما تقوله .. لا تنس أن دراستى محدودة .

أشار إليه الدكتور (هاشم) ، قائلاً :

- انتظر .. سأشرح لك الأمر بوسيلة أكثر بساطة .

ثم التقط خرطومًا مطاطيًا ، وفرده أمام عينى (أشرف) ، مكملاً :

- ما الذى ينبغى أن تفعله نملة ، تقف عند بداية هذا الخرطوم ، حتى تبلغ نهايته ؟

أجابه (أشرف) فى حيرة :

- ينبغى أن تسير فوقه .

قال الدكتور (هاشم) فى حماس :

- عظيم .. وهذا يعنى أنها ستستغرق الوقت اللازم للعبور ، من بداية الخرطوم إلى نهايته .. أليس كذلك ؟

أومأ (أشرف) برأسه متفهمًا ، فثنى الدكتور (هاشم) الخرطوم ، وهو يقول :

- ماذا سيحدث إذن ، لو أننا جعلنا الخرطوم ينثنى على هذا النحو ، بحيث أصبحت بدايته قريبة للغاية من نهايته ، دون أن ننقص من طوله شيئا .. ألن يعنى هذا أن كل ما على النملة أن تفعله ، هو أن تقفز من البداية إلى النهاية مباشرة ، دون المرور بباقى أجزاء الخرطوم ؟!

قال (أشرف) فى حذر :

- ولكن النملة لا يمكنها القفز .

هتف الدكتور (هاشم) :

- بالضبط .. أضف إلى هذا أنها تجهل هذه الوسيلة أيضًا ، ولكن ماذا لو أننا شرحنا لها ما ينبغى أن تفعله ، وزودناها بوسيلة للقفز ؟!.. إنها ستنتقل فى هذه الحالة من بداية الخرطوم إلى نهايته مباشرة ، دون أن تضطر للسير بامتداد طوله كله .. هذا بالضبط ما ستفعله آلة الزمن ، لو افترضنا أن هذا الخرطوم هو مسار الزمن نفسه .. الآلة ستساعدنا على اختيار منحنى زمنى ، والقفز من بدايته إلى نهايته ، دون أن نضطر للسير فى الزمن الحقيقى .

قال (أشرف) فى حماس :

- الآن أفهم هذا جيدًا .

تنهّد الدكتور (هاشم) ، قائلاً :

ـ هذا يسعدنى ، ولكن ينبغى أن تفهم أيضًا أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا باتجاه المستقبل فحسب .

قالها ، وعاد يدفن وجهه بين كفيه ، ويتحسّر فى مرارة ، فلاذ سكرتيره بالصمت بضع لحظات ، ثم قال فى حزم :

ـ وماذا فى هذا ؟

أجابه الدكتور (هاشم) فى مرارة شديدة :

ـ لن يتحقق الغرض ، الذى من أجله منحنا الممولّ كل هذا المبلغ .. لن يمكنه السفر قط إلى الماضى .

قال (أشرف) بسرعة :

ـ ومن سيبلغه هذا ؟

حدّق الدكتور (هاشم) فى وجهه بدهشة واستنكار ، وهو يهتف :

ـ ماذا تعنى يا (أشرف) ؟!.. الرجل دفع مليون جنيه لتمويل مشروع ، لن يعود عليه بالفائدة المرجوة ، ونحن نعلم هذا .

أجابه (أشرف) فى حزم :

ـ ولكنه هو لا يعلمه ، والأفضل أن يظل على جهله به ، حتى ينتهى صنع الآلة وتشغيلها .

همّ الدكتور (هاشم) بالاعتراض مرة أخرى ، ولكنه قاطعه متابعًا فى حزم أكثر :

ـ ألا تدرك قيمة وقوة اختراعك يا دكتور (هاشم) .. إنك ما إن تنتهى من صنعه ، وتعلن عن وجود آلة زمن حقيقية ، حتى تنهال عليك العروض بالمليارات ، للحصول عليها .. ألا تدرك معنى الحصول على آلة كهذه ؟!

أجابه فى دهشة :

ـ ولكنها ستنقلهم إلى المستقبل فحسب .

قال (أشرف) فى حماس :

ـ فى المرحلة الأولى فقط ، ولكن وجودها فى حد ذاته يمنحهم الأمل فى تطوير أسلوبها يومًا ما ، والعثور على وسيلة لعكس اتجاهها ، واستخدامها للسفر إلى الماضى .. وحتى لو ظلت على حالها ، فكم من البشر يتمنون السفر إلى المستقبل ، لمعرفة ما ستكون عليه الحضارة بعد مائة عام مثلاً .

أجابه (هاشم) فى شىء من التخاذل :

ـ لن يمكنهم العودة لو فعلوا ، فالآلة ستنقلهم إلى المستقبل ، ولكنها لن تستطيع إعادتهم إلى الحاضر ، لأنه سيصبح بالنسبة لهم ماضٍ مرّ وانتهى ، وهى لا تمتلك القدرة على العمل فى هذا الاتجاه .

قال (أشرف) فى حزم :

ـ اتركهم يفعلون هذا على مسئوليتهم .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ المهم أن يتم صنع آلة الزمن .. مهما كان الثمن .

وفى هذه المرة لم يعترض الدكتور (هاشم) أو يجادل ..

لقد قرر الاستماع إلى نصيحة سكرتيره ، والمضى قدمًا لصنع آلة الزمن .

وبأى ثمن ..

* * *

انعقد حاجبا (ماهر) فى شدة ، وهو يحدق فى وجه الدكتور (هاشم) ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ إذن فقد اتفقتما على القيام بعملية نصب .

تراجع الدكتور (هاشم) كالمصعوق ، وهو يقول :

ـ نصب ؟!.. مطلقًا .. كل ما حدث هو أننا اتفقنا على إخفاء الأمر ، حتى يتم صنع الآلة ، وقررنا أن نقتسم كل ما يمكننا الحصول عليه من عائد مع الممول ، وكان هذا يبدو عادلاً حينذاك .

مطّ (ماهر) شفتيه قائلاً :

ـ هذا رأى كل النصابين .

احتقن وجه الدكتور (هاشم) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لست أسمح لك ..

انفجر (ماهر) فى وجهه ، صائحًا :

ـ ومن يهتم برأيك ؟!.. هل تعتقد أننى أصدق كل هذا ؟!.. هل تصورت أننى واحد من هؤلاء السذج ، الذين يمكنهم أن يصدقوا فكرة وجود آلة الزمن المزعومة هذه ؟!

ازداد احتقان وجه الدكتور (هاشم) بشدة ، وهو يقول :

ـ ولكن آلة الزمن .. رباه !.. أعنى أن وجـود (أشرف) هنا يثبت أن آلة الزمن ..

قاطعه (ماهر) فى حدة :

ـ وجـود (أشـرف) ؟!.. أراهن علـى أنـه لا وجـود أساسًا للمدعو (أشرف) هذا ، وأننا لو راجعنا سجلات مركز البحوث القديمة ، لما وجدنا اسمه فى قائمة العاملين هناك قط .

أجابه الدكتور (هاشم) فى عصبية :

ـ هذا أمر طبيعى ، و (أشرف) لم يكن قط من العاملين فى مركز البحوث .. لقد كان سكرتيرى الخاص .

هتف (ماهر) ساخرًا :

ـ سكرتيرك الخاص ؟!.. ومن أين لك بسكرتير خاص يا رجل ؟! إنك ترتدى حلة عفا عليها الدهر ، لأنك لا تمتلك ثمن واحدة جديدة .

أجابه الرجل فى ثورة :

ـ لم يكن حالى هكذا فى الماضى .

همّ (ماهر) بقول عبارة ساخرة جديدة ، ولكن (منير) قال فى صرامة :

ـ كفى يا (ماهر) .. لسنا هنا للدخول فى مشاحنات .

التفت إليه (ماهر) قائلاً فى حدة :

ـ ولكننا هنا لكشف الحقيقة .. أليس كذلك ؟

أجابه (منير) فى صرامة أكثر :

ـ بلى ، ولكن الحقيقة لن تنكشف بالغضب والعنف والعصبية والتوتر .. هناك وسيلة واحدة فى رأيى للوصول إلى الحقيقة .

ثم أشار إلى رأسه ، مردفًا :

ـ العقل .

قال (ماهر) فى سرعة وعصبية :

ـ والأدلة المادية أيضًا .

صمت (منير) لحظة ، وانعقد حاجباه فى شدة لثوان ، قبل أن يقول فى حسم :

ـ بالتأكيد .

ثم التفت إلى الدكتور (هاشم) ، وقال :

ـ دعنا نعُد إلى ذكرياتك يا دكتور (هاشم) .. ما الذى فعلتموه بشأن آلة الزمن ؟!

ازدرد الدكتور (هاشم) لعابه ، وعدّل منظاره الطبى فوق أنفه ، قبل أن يجيب فى توتر :

ـ واصلنا صنعها ، وكتمنا أمر عدم قدرتها على السفر إلى الماضى عن الممول ، الذى كان يتابع الأمر فى حماس منقطع النظير ، وهو يسأل فى لهفة : متى ننتهى من صنعها ، حتى يمكنه بدء رحلة الثراء الفاحش ، وكان قوله هذا يمزق ضميرى ، مما دفعنى إلى بذل المزيد من الجهد ، ومواصلة الليل بالنهار ، حتى يمكننى الانتهاء من صنعها مبكرًا .

وصمت وهو يلتقط نفسًا عميقًا ، فقال (منير) فى اهتمام :

ـ ثم ماذا ؟!

لوّح الرجل بيده ، قائلا :

ـ ثم انتهينا من صنع الآلة فى صيف عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين ، ولكن من الناحية النظرية فحسب .

سأله (ماهر) فى شىء من الحدة :

ـ ماذا تعنى بالناحية النظرية ؟!.. هل صنعتموها أم انتهيتم من وضع رسومها وتصميماتها فحسب ؟

أجابه الدكتور (هاشم) ، فى شىء من العصبية :

ـ بل أعنى أننا انتهينا من صنع آلة يفترض أنها قادرة على إرسال البشر والمواد عبر الزمن ، ولكننا لم نكن قد اختبرنا هذا بالفعل .. أى أنها آلة زمن من الناحية النظرية فقط ، وليس من الناحية العملية ، المؤيدة بتجربة ناجحة .

تراجع (ماهر) فى مقعده ، وهو يبتسم فى سخرية ، قائلا :

ـ هذا أقرب إلى المنطق .

زفر (منير) فى ضيق ، والتفت إلى الدكتور (هاشم) ، يسأله :

ـ وهل أجريتم اختبارًا لها ؟!

تردّد الدكتور (هاشم) لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ نعم .. أجرينا الاختبار ، ولكن ..

قال (ماهر) فى سرعة :

ـ ولكنه فشل .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا الدكتور (ماهر) فى ضيق ، وهو يجيب :

ـ لا يمكنك أن تقول إنه فشل .

وتردّد مرة أخرى ، ثم تابع فى شىء من العصبية :

ـ ولا يمكننى الجزم بنجاحه .

سأله (منير) فى حيرة :

ـ وكيف هذا ؟!. إما أن ينجح الاختبار أو يفشل .. لا معنى لأنه لم يفشل ولم يثبت نجاحه .

تنهّد الدكتور (هاشم) ، وهو يجيب :

ـ ولكن هذا ما حدث .

سأله (ماهر) فى شىء من السخرية :

ـ وكيف هذا أيها العبقرى ؟

رمقه الدكتور (هاشم) بنظرة غاضبة محنقة ، إلا أنه لم يسمح لهذه المشاعر بالسيطرة على أفكاره ، وإنما تغلّب عليها بنفس عميق من هواء الحجرة المكيّف ، ثم عاد يروى ما لديه .. وبكل التفاصيل ..

* * *

تهلّلت أسارير (أشرف) فى حماس ، وهو يتطلّع إلى آلة الزمن ، هاتفًا فى سعادة :

ـ أخيرًا تم صنعها يا دكتور (هاشم) .. أخيرًا تحقّقت معجزة العلم ، التى اندرجت تحت بند الخيال لسنوات وسنوات !

تطلّع الدكتور (هاشم) إلى الآلة فى انفعال ، وراح قلبه يخفق فى عنف ، وهو يسترجع كل ما حدث منذ البداية ..

أواقع هذا أم أضغاث أحلام ؟!.

هل صنع آلة الزمن بالفعل ؟!..

هل نجحت محاولاته فى تحويل الخيال إلى حقيقة ؟!..

هل صدقت معادلاته إلى هذا الحد ؟!..

كان الانفعال يغلب عليه بشدة ، حتى أن جسده راح يرتجف ، و (أشرف) يواصل تأمُّل الآلة ، قائلا :

ـ لا يمكننى الصبر لرؤية لحظة تشغيلها .. تلك اللحظة التى ستحدث فيها أوّل رحلة سفر عبر الزمن .

ثم التفت إلى الدكتور (هاشم) ، مستطردًا بابتسامة كبيرة :

ـ إنك ستذكر اسمى للصحفيين ، عندما تعقد المؤتمر الصحفى .. أليس كذلك ؟

أجابه الدكتور (هاشم) بتمتمة خافتة :

ـ بالتأكيد .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول فى حماس :

ـ أخبرهم أننى سكرتيرك ، ومساعدك ، والرجل الذى عاون فى صنع أوّل آلة زمن فى التاريخ .

وربّت بيده على كتف الدكتور (هاشم) ، متابعًا فى حماس :

ـ أراهن على أن تجربتها الأولى ستبهرهم .

انعقد حاجبا الدكتور (هاشم) ، وهو يردّد فى ارتياع :

ـ تجربتها الأولى ؟!

تطلّع إليه (أشرف) فى دهشة ، ثم سأله فى حذر :

ـ هل حدث أمر ما ؟

اضطرب الدكتور (هاشم) ، وعجز عن التحدُّث لبضع لحظات ، وهو يلوّح بسبّابته فى اتجاه الآلة ، قبل أن يتغلّب على انفعاله جزئيًا ، ويجيب :

ـ إننا لم نختبرها بعد .

ارتفع حاجبا (أشرف) فى دهشة أكثر ، وهو يقول :

ـ يا إلهى !.. هذا صحيح .. إننا لم نختبر آلة الزمن .

ثم عاد حاجباه ينعقدان ، وهو يسأل الدكتور فى اهتمام :

ـ كيف يمكننا اختبارها فى رأيك ؟

عدّل الدكتور (هاشم) منظاره فوق أنفه ، وهو يقول :

ـ دعنا نختار شيئًا بسيطًا ، يمكننا إرساله عبر الزمن ، بأقلّ قدر من المخاطر .

سأله (أشرف) :

ـ قط أليف مثلاً .

هزّ الرجل رأسه نفيًا ، وقال فى حزم :

ـ كلاّ .. لن أستخدم أى كائن حى فى الاختبار الأوّل .. إننا نجهل تأثير عملية الانتقال عبر الزمن على الخلايا الحية .

قال (أشرف) :

ـ رباه !.. يبدو أن الأمر سيحتاج إلى اختبارات عديدة .

بدا الضيق على وجه الدكتور (هاشم) ، وهو يقول :

ـ يمكننا على الأقل استخدام أى جماد .

ثم أشار إلى مقعد من الخشب والقماش ، من طراز (لويس) السادس عشر(*) ، وقال :

ـ هذا يصلح كعينة اختبار جيدة .

ابتسم (أشرف) ، وهو يحمل المقعد إلى داخل الآلة ، قائلاً :

ـ إنه كرسى ثمين .

هزّ الدكتور (هاشم) كتفيه ، وقال :

ـ المجد يستلزم التضحية بالأشياء الثمينة أحيانًا .

وضع (أشرف) المقعد فى منتصف الآلة تمامًا ، ثم تراجع مبتعدًا ، وأغلق بابها فى حرص ، وهو يقول :

ـ المقعد مستعد لبدء التجربة .

اتجه الدكتور (هاشم) إلى جهاز التشغيل ، وخفق قلبه فى قوة ، وهو يضغط أزراره ، ويسمع هدير آلة توليد الطاقة ، و ..

وصدر فى المكان صوت أشبه بفرقعة عنيفة ، كادت تصمّ آذانهما ، وتألّق ضوء مبهر للغاية ، أجبرهما على الإشاحة بوجهيهما، و (أشرف) يهتف :

ـ رباه !.. الانتقال عبر الزمن عنيف للغاية .

ومع آخر حروف عبارته ، انطفأ الضوء المبهر ، وتلاشى

(*) لويس السادس عشر (١٧٥٤ ــ ١٧٩٣ م) : ملك (فرنسا) ، وزوج (مارى أنطوانيت) ، لم يحظ بحب الشعب الفرنسى ، وأدى تدخله فى الثورة الأمريكية إلى إفلاس (فرنسا) ، وقيام الثورة الفرنسية ، التى أعدمته مع زوجته بالمقصلة .

صوت الفرقعة ، فالتفت الاثنان يحدقان فى الباب الزجاجى لآلة الزمن ، وخفق قلباهما فى عنف ، و (أشرف) يتمتم مبهورًا :

ـ لقد اختفى المقعد .. نجحت التجربة .. نجحت التجربة يا دكتور (هاشم) .

قالها ، وهو يلتفت إلى الدكتور (هاشم) فى سعادة بالغة ، إلا أن نظرة واحدة لوجه هذا الأخير جعلت قلبه يرتجف بين ضلوعه .

هذا لأن الانفعال الذى يملأ وجه الدكتور (هاشم) لم يكن يحمل لمحة واحدة من الفرح والسعادة ، بل كان أقرب إلى الذعر والارتياع ..

لقد انتبه الآن فقط إلى أن آلة الزمن ، التى استغرق عامًا كاملاً تقريبًا لصنعها ، تحوى عيبًا جوهريًا ..

وخطيرًا ..

خطيرًا للغاية .

* * *

٤ ـ تحت الأضواء ..

تثاءب المفتش (ماهر) فى إرهاق ، وارتشف رشفة من قدح القهوة المركزة الذى يحمله ، قبل أن يتطلع إلى ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الثامنة والربع صباحًا ، فى حين فرك (منير) عينيه ، واسترخى فى مقعده ، وهو يسأل الدكتور (هاشم) :

ـ وما العيب الجوهرى ، الذى كشفت وجوده فى الآلة ؟

أجابه الدكتور (هاشم) فى مرارة :

ـ لم تكن تحوى جهاز توجيه .

لم يفهم (ماهر) ما يعنيه هذا ، فالتفت ليسأل الدكتور (هاشم) ، إلا أن هذا الأخير تابع موضحًا :

ـ كان بإمكاننا إرسال المقعد عبر الزمن ، ولكننا نجهل نقطة هبوطه ، ونعجز عن التحكم فيها .

قال (ماهر) فى حدة :

ـ كيف تضمن إذن أنه سافر عبر الزمن ؟!.. لم لا تكون آلتكم قد حللت ذراته فحسب ، أو نثرتها فى الهواء ؟!

ابتسم (منير) وهو يقول فى خبث :

ـ إذن فأنت تفهم أنه من الممكن تحليل ذرات المادة أو نثرها فى الهواء !.. عجبًا !.. كنت أتصور أنك لا تهتم بتلك الأمور العلمية قط .

أشاح (ماهر) بوجهه ، قائلاً :

ـ أنا أيضًا قرأت بعض روايات الخيال العلمى فى شبابى .

ثم عاد يلتفت إليه ، مستطردًا فى عصبية :

ـ ولكننى لم أومن بحرف واحد مما جاء بها .

أشار إليه الدكتور (هاشم) ، قائلاً :

ـ ولكن سؤالك منطقى للغاية ، حتى أننى طرحته على نفسى ، عندما اختفى المقعد .

قال (ماهر) فى انبهار :

ـ حقًا ؟!

ثم لم يرق له اعترافه بمشاعره على هذا النحو ، فعقد حاجبيه فى شدة ، وقال فى صرامة :

ـ أمر طبيعى .

هزّ الدكتور (هاشم) رأسه موافقًا ، وهو يقول :

ـ نعم .. كان من الطبيعى أن ألقى على نفسى هذا السؤال ، وخاصة لأننى أجهل إلى أى زمن انتقل المقعد ، إلا أن معادلاتى أشارت إلى أن الطاقة اللازمة لتحليل ذرات المادة وتشتيتها فى الهواء ، تفوق بكثير تلك التى تلزم لنقلها عبر الزمن .

مطّ (ماهر) شفتيه ، وهو يقول فى ضجر :

ـ معادلاتك مرة أخرى !

أجابه الدكتور (هاشم) فى حدة :

ـ نعم .. معادلاتى .. معادلاتى التى سيعرف العالم قيمتها الحقيقية يومًا .

ربّت (منير) على كتفه ، قائلاً :

ـ اهدأ يا دكتور (هاشم) .. اهدأ .. من يدرى ؟ ربما كان هذا هو اليوم الذى سيعرف فيه العالم قيمة معادلاتك .

التفت إليه الرجل ، قائلاً فى لهفة :

ـ هل تظن هذا حقًا ؟!

هزّ (منير) كتفيه ، قائلاً بابتسامة هادئة :

ـ من يدرى ؟!

بدا الارتياح على وجه الرجل ، وهو يتمتم :

ـ يسعدنى أنك تؤمن بى .

رمقه (ماهر) بنظرة استنكار ، ولكنه لم يعلّق على العبارة ، فى حين حافظ (منير) على ابتسامته الهادئة ، وهو يسأل فى اهتمام :

ـ هل صنعت آلة التوجيه المطلوبة هذه ؟

هزّ الدكتور (هاشم) رأسه نفيًا ، وقال فى أسى :

ـ لم يكن هذا ممكنًا ، حتى من الناحية النظرية ، ففى ذلك الحين كانت معلوماتى عن السفر عبر الزمن محدودة ، وتقتصر على كيفية الانتقال من نقطة زمنية إلى أخرى ، عبر حاجز الأبعاد ، ولكن لم يكن باستطاعتى تحديد زمن الوصول ، حتى من خلال المعادلات النظرية .

قال (ماهر) فى شىء من السخرية :

ـ إذن فقد ضاع المقعد عبر الزمن ، ولم يعد هناك دليل يثبت وجود آلة زمن حقيقية .. أليس كذلك ؟!

انفعل الدكتور (هاشم) أكثر من المعتاد هذه المرة ، حتى أن وجهه قد احتقن فى شدة ، وهو يقول :

ـ أنا واثق من أن المقعد سيظهر يومًا ، فى زمن ما ، وسيكون الدليل على أن آلتى الزمنية لم تكن خدعة أو وهمًا ، وإنما كانت حقيقة .. حقيقة واقعة ، فالمقعد يحمل توقيع صانعه ، ومن العسير أن تجد مثله الآن .

انعقد حاجبا (منير) فى شدة ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فى حين قال (ماهر) فى حدة :

ـ أين هى إذن ؟!.. أين ذهبت آلة الزمن المزعومة ؟

احتقن وجه الرجل أكثر ، حتى خُيِّل لـ (منير) أن الدماء ستتفجَّر منه ، وهو يصرخ :

ـ أنت تعلم ما أصابها .. كلكم تعلمون ما أصاب آلتى .

صاح (ماهر) :

ـ هكذا ؟! إذن فأنت تدّعى أن ..

قاطعه (منير) فجأة فى صرامة :

ـ كفى يا (ماهر) .. إنك ستقتل الرجل باستفزازاتك هذه .

كان الدكتور (هاشم) يبدو وكأنه سيلفظ أنفاسه بالفعل ، فقد جحظت عيناه ، مع احتقان وجهه الشديد ، واختنقت الكلمات فى حلقه ، وراح يلتقط أنفاسه فى صعوبة ، فتراجع (ماهر) فى قلق ، وهو يتمتم :

ـ أنا لم .. لم أقصد هذا .

مال (منير) على الدكتور (هاشم) ، وسأله فى توتر :

ـ هل تحتاج إلى إسعاف طبى ؟

أشار الرجل بيده نفيًا ، وقال فى صعوبة :

ـ كلاَّ .. إنها أزمة عابرة .. سأستعيد قواى بعد قليل .

تطلَّع إليه (منير) فى قلق أكثر ، ثم نهض قائلاً ، وهو يتجه إلى باب الحجرة :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نطلب مساعدة طبية .

أخرج الرجل من جيبه كبسولة صغيرة شفافة ، تحوى كمية من الحبيبات الصغيرة ، من مختلف الألوان ، وغمغم :

ـ لا عليك .. أنا أحمل كل أدويتى .

تطلَّع (ماهر) إلى الكبسولة ، قبل أن يبتلعها الرجل ، وهو يقول فى دهشة :

ـ كل أدويتك ؟!

أجابه (منير) ، وهو يتطلَّع إلى الرجل فى اهتمام قلق :

ـ إنها أحدث صيحة فى عالم الدواء .. كبسولة واحدة ، تحوى كل الأدوية والعقاقير ، التى يحتاج إليها المرء ، لعلاج عدد من الأمراض المختلفة ، بحيث توضع كل مادة فعَّالة على شكل حبيبات ، لا يمكنها أن تمتزج إلا بعد وصولها إلى الأمعاء ، عندما يذوب غلافها الخارجى .

مطَّ (ماهر) شفتيه ، وغمغم وهو يراقب الدكتور (هاشم) بدوره :

ـ العلم يتقدَّم كل يوم .

كانت أنفاس الرجل تستعيد انتظامها فى بطء ، فاعتدل على

مقعده ، ولوّح بيده مؤيدًا ، دون أن ينطق ، فتنهّد (منير) ، وقال :

ـ هذا أمر طبيعى .

كانت عبارته مجرد تمهيد لإلقاء سؤال آخر ، ولكنه لم يكد ينطق آخر حروفها ، حتى ارتفع صوت دقات عالية على باب الحجرة ، فالتفت إليه الجميع فى دهشة ، وقال (ماهر) فى غضب :

ـ ترى من هذا الوقح .

قالها ، ونهض يفتح الباب ، ولكنه لم يكد يفعل ، حتى اندفع ثلاثة رجال وامرأة إلى الحجرة ، وأحدهم يحمل آلة تصوير هولوجرافية ، فى حين أسرعت المرأة إلى الدكتور (هاشم) مباشرة ، وهى تسأله فى لهفة :

ـ دكتور (هاشم) .. ما شعورك بعد ظهور سكرتيرك المفقود فى زمننا هذا ؟!

تفجّرت الدهشة فى وجهى (ماهر) و (منير) ، وهتف الأخير فى غضب :

ـ من أخبركم بهذا الأمر ؟!

أجابته المرأة فى تعال :

ـ لدينا مصادرنا الصحفية .

وأسرع أحد رجالها يجيب فى حماس :

ـ لقد تلقينا محادثة هاتفية مجهولة ، و ...

قاطعه فى صرامة :

ـ إياك أن تفصح عن المصادر .

ثم التفتت بسرعة إلى الدكتور (هاشم) ، وسألته فى حرارة :

ـ كيف تلقّيت الخبر ؟

قال (ماهر) فى حدة :

ـ لن تحصلوا على إجابات فى هذا الشأن ، فالتحقيق لم ينته بعد .

ولكن الدكتور (هاشم) أجاب فى سرعة :

ـ لم أتأكد بعد من أنه سكرتيرى السابق .

سألته المرأة فى حماس :

ـ وماذا لو تأكدت من هويته ؟.. ألن يعنى هذا أن آلتك الزمنية كانت ناجحة بالفعل ؟!

أجابها الرجل فى حماس مماثل :

ـ أنا واثق من أنها حقيقية .

صاح (ماهر) مرة أخرى فى غضب :

ـ لا أسئلة جديدة حول هذا الأمر ، قبل أن تنتهى التحقيقات .

استدارت إليه المرأة ، وقالت فى حدة غاضبة :

ـ ليس من حقك منعنا من هذا .. إننا نمثل وسائل الإعلام الحديثة ، وهى مزيج من الصحافة والتليفزيون ، والقانون يمنحنا الحق فى السعى وراء كل الأخبار ، ما دام لم يصدر بشأنها حظر تداول ، من النائب العام شخصيًا .

ألجمه اندفاعها وحدتها ، فتطلّع إليها فى دهشة ، فى حين عادت هى تلتفت إلى الدكتور (هاشم) ، وتكمل فى حماس وهى تلتقط يده :

ـ ما رأيك لو نقلنا لحظة لقائك به على الهواء مباشرة ؟!

قالتها ، وجذبته فى خطوات أقرب إلى العدو خارج الحجرة ، وانطلقت به ، مع فريق المصورين نحو حجرة الشاب ، فهتف (ماهر) فى دهشة غاضبة مستنكرة :

ـ من هذه المرأة بالضبط ؟

ابتسم (منير) ، وقال وهو يسرع خلف الركب إلى حجرة الشاب :

ـ لست أذكر اسمها بالضبط ، ولكنها مذيعة تليفزيونية ناجحة ، فى نشرات الأخبار والتحقيقات الجادة ، وهى على حق تمامًا ، فالقانون يمنحها الحق فى البحث عن الأخبار الجديدة بأى ثمن .

ثم أشار إليه ، مستطردًا :

ـ هيا بنا نلحق بهم ، فلست أحب أن يفوتنى ذلك اللقاء الأول ، بين الدكتور (هاشم) وسكرتيره .

عقد (ماهر) حاجبيه ، وهو يلحق به ، قائلاً فى عصبية :

ـ هل حسمت الأمر ، واعتبرته سكرتيره القادم من زمن آخر بالفعل ؟

أجابه (منير) فى حزم ، وهو يحث الخطا ، ليلحق بطاقم التصوير :

ـ لم أحسم شيئًا بعد .

وصلا إلى الحجرة فى نفس اللحظة التى دفعت فيها المذيعة الدكتور (هاشم) داخلها ، وهى تقول :

ـ هيا .. تبادلا التحية أمام آلات التصوير .

التفت الشاب إليهم فى دهشة ، وانعقد حاجباه فى توتر ، وهو يتطلع إلى الدكتور (هاشم) ، الذى توقف على قيد مترين منه ، وراح يتطلع إليه بدوره فى صمت ، تسلل من بينهما ليغمر الحجرة كلها ، فتغرق فى صمت مهيب ، والعيون كلها تراقب اللقاء فى لهفة وفضول وشغف ، و ...

« الدكتور (هاشم) ؟!.. » .

قطع (أشرف) حبل الصمت ، وهو يلقى كلمته بلهجة تجمع ما بين الدهشة والتوتر والفرح ، فى حين تراجع الدكتور (هاشم) ، وغمغم :

ـ مستحيل !.. إذن فقد نجوت !

تجمد كل منهما فى موضعه لحظة ، ثم اندفعا كل منهما نحو الآخر ، وتعانقا فى حرارة ، و (هاشم) يهتف :

ـ يا إلهى !.. لقد رأيتك ثانية .. التقيت بك بعد كل هذه السنين .

أجابه (أشرف) فى حرارة :

ـ بالنسبة لى لم تمض سوى ساعات محدودة ، على آخر لقاء لنا .

قالت المذيعة فى انفعال :

ـ ياله من خبر لأول أيام العام الجديد !.. ياله من خبر !

وغمغم أحد مساعديها فى انبهار :

ـ إذن فآلة الزمن حقيقة .

صاح به (ماهر) فى حدة :

ـ لم يثبت هذا بعد .. انتظروا نتائج التحقيقات .

ثم دفعهم خارج الحجرة فى صرامة ، مستطردًا :

ـ والآن غادروا الحجرة .. إنكم تعوقون تحقيقًا رسميًا .

هتفت المذيعة معترضة :

ـ القانون يمنحنا الحق فى ...

قاطعها فى صرامة أكثر :

ـ إنه لا يمنحك الحق فى إفساد التحقيقات الرسمية .. انتظرى حتى نفرغ من الأمر أولًا ، ثم استغلى ثغرات وسخافات القانون كيفما يحلو لك .

قالها ، وصفق الباب خلفها فى قوة ، ثم ابتسم فى خبث ، مستطردًا :

ـ وأعتقد أننا لن نفرغ منه قبل أسبوع على الأقل .

أما (منير) ، فقد تطلع إلى (أشرف) والدكتور (هاشم) ، قبل أن يقول :

ـ إذن فهذا هو سكرتيرك يا دكتور (هاشم) .

ربت (هاشم) على كتف (أشرف) فى حرارة ، وهو يهتف :

ـ إنه هو بكل تأكيد .. لم يتغير قط ، منذ وقع بصرى عليه آخر مرة .

سأله (منير) بسرعة :

ـ ومتى كانت آخر مرة هذه ؟

أجابه (أشرف) بابتسامة كبيرة :

ـ فى نفس اليوم ، الذى كان ينبغى أن يُعقد فيه المؤتمر الصحفى .

مطّ (ماهر) شفتيه ، قائلًا :

ـ هل طلبتما عقد المؤتمر الصحفى ، على الرغم من عدم وجود آلة توجيه ؟

أجابه (هاشم) فى اهتمام :

ـ بالتأكيد .. (أشرف) أقنعنى بأنه ليس من الضرورى أن نحدد زمن وصول الشىء ، فى المرحلة الأولى من الاختراع .. تكفى المعادلات الرياضية ، ووجود الآلة ، مع قدرتها على إرسال المواد عبر الزمن .. ولقد اقتنعت بوجهة نظره ، وقررت عقد المؤتمر الصحفى بأقصى سرعة ، خشية أن يسبقنى شخص ما إلى إعلان ما توصلت إليه ، خاصة وأن الأمريكيين كانوا يجرون تجاربهم بالفعل ، منذ أوائل الثمانينات ، لاختراع آلة زمن(*) .

قال (ماهر) فى صرامة :

ـ إذن فأنت مستعد لتجاوز كل القواعد ، فى سبيل مجدك الشخصى .

أجابه الرجل فى غضب :

ـ بل أنا مستعد لتجاوز العالم كله ، فى سبيل العلم .

أشار إليهما (منير) ، قائلًا فى حدة :

ـ كفى يا (ماهر) .. لقد سئمت هذه المشاحنات غير المجدية .. دعنا نستمع إلى الرجل ، ثم افعل ما يحلو لك بعدها .

احتقن وجه (ماهر) ، وهو يقول :

(*) حقيقة

ـ بل سأفعل ما هو أفضل .. سأتركك لتستمع وحدك إلى هذا الهراء ، وسأذهب أنا لجمع كل التحريات الممكنة عن الدكتور (هاشم) ، وسكرتيره المزعوم ، وسأثبت أن كل هذا مجرّد لغو .

قالها ، واندفع يغادر الحجرة فى حدة ، ويغلق بابها خلفه فى عنف ، ولكنه لم يكد يفعل ، حتى ارتطم بالمذيعة ، التى هتفت غاضبة :

ـ مهلا يا رجل .. هل الارتطام بنا جزء من تحقيقاتك الرسمية ؟

صاح فى وجهها محتدا :

ـ اسمعى يا سيدتى ، أو يا آنستى .. أيًا كانت حالتك الاجتماعية إننى أبغض مشاهدة (التليفزيون) ، وقراءة الصحف ، والمجلات ، وكل وسائل الإعلام الأخرى ، ولكننى سأبذل قصارى جهدى ، لجمع كل المعلومات الممكنة عن هذا العالم المأفون ، لأثبت للدنيا كلها أنه مجرّد نصّاب كبير .

تطلّعت إليه فى دهشة ، مردّدة :

ـ نصّاب كبير ؟!

أزاحها عن طريقه فى حدة ، قائلا :

ـ إنه رأيى ، وهو ليس للنشر .

أمسكت معصمه بغتة ، وهى تقول :

ـ مهلا ..

التفت إليها فى عصبية شديدة ، وأدهشه أن رآها تبتسم ، مستطردة :

ـ ما تبحث عنه لدى بالفعل .

حدّق فى وجهها بدهشة ، وهو يقول :

ـ لديك ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تبتسم فى عذوبة شديدة ، وتجيب :

ـ عندما وصلنا خبر العثور على السكرتير ، استعنت بأرشيف الصحافة والكمبيوتر ، للحصول على كل المعلومات المطلوبة حول الدكتور (هاشم) ، والقصة القديمة لآلة الزمن هذه ، ومن حسن حظك أننى أحمل كل هذا معى الآن .

غمغم فى توتر ، وهو يتطلّع إلى عينيها مباشرة :

ـ حقًا ؟!

بدت له ابتسامتها أكثر عذوبة ، وهى تقول :

ـ نعم .. حقًا .. سأسمح لك بدعوتى لتناول قدح من الشاى ، وسأطلعك على كل ما لدىّ ..

خُيّل إليه أن عذوبتها قد أزالت كل توتره وعصبيته فى لحظات ، وهو يقول :

ـ اتفقنا .

ضحكت فى مرح ، واتجهت معه إلى حجرة الانتظار قائلة :

ـ وبالمناسبة .. أنا آنسة ، لم أتزوّج بعد .

وجد نفسه يهتف فى حرارة وحماس :

ـ حقًا ؟

وفى هذه المرة اشتركا فى ضحكة طويلة ..

وصافية ..

* * *

« ما زال هناك أمر يثير حيرتى .. » .

نطق (منير) العبارة فى هدوء شديد ، وهو ينقل بصره بين (أشرف) والدكتور (هاشم) ، فسأله الأخير فى اهتمام :

ـ أى أمر هذا ؟

سأله (منير) :

ـ لماذا لم ينعقد المؤتمر الصحفى ، مادام كل شىء كان يسير على ما يرام ؟

تبادل (هاشم) و (أشرف) نظرة قصيرة ، قبل أن يقول الأوّل فى مرارة شديدة ، تشفّ عما يعتمل فى أعماقه :

ـ هل ستروى له أنت ما حدث ، أم أرويه أنا ؟

ربّت (أشرف) على كتفه ، قائلاً :

ـ دعنى أروه أنا ، فربما لا يحتمل قلبك انفعال استعادة الذكريات .

هزّ (هاشم) رأسه متفهمًا ، وقال :

ـ فليكن .. هذا أفضل .

ربّت (أشرف) على كتفه ثانية ، ثم رفع عينيه إلى (منير) ، قائلاً :

ـ لم نكد نعلن أمر المؤتمر الصحفى ، حتى قامت الدنيا ولم تقعد .. كل علماء مركز البحوث استنكروا الفكرة ، وعلى رأسهم المدير بالطبع ، الذى لم يكتف بالاستنكار ، وإنما راح يسخر من الدكتور (هاشم) وآلته طوال الوقت ، أما الصحفيون فقد أبدوا تشككهم وحذرهم ، إلا أن أحدًا منهم لم يرفض الحضور ، خشية

أن يفقد خبر الموسم ، خاصة وأن وكالات الأنباء فى العالم كله تناقلت الخبر ، وبعضها أرسل مراسليه لحضور المؤتمر الصحفى ، وأصبح الأمر مسألة ساعات معدودة ، وتصبح الشائعة حقيقة .

سأله (منير) :

ـ ما الذى حدث إذن ، فى هذه الساعات المعدودة ؟

بدا صوت الدكتور (هاشم) أشبه بالبكاء ، وهو يقول :

ـ كارثة !

انعقد حاجبا (منير) ، وهو يسأل :

ـ أى نوع من الكوارث ؟!

التفت الدكتور (هاشم) إلى (أشرف) بنظرة بائسة ، فقال هذا الأخير فى صوت حزين :

ـ سأخبرك .

وبدأ يروى التفاصيل الجديدة ..

تفاصيل الكارثة .

* * *

٥ ـ الكارثة ..

تقارب حاجبا المفتش (ماهر) فى اهتمام حقيقى ، وهو يستمع إلى المذيعة ، التى راحت تشرح له ما لديها ، قائلة :

ـ السجلات تقول : إنه قبل صيف ألف وتسعمائة وستة وثمانين ، لم يكن الدكتور (هاشم حداد) عالمًا بارزًا ، أو حتى معروفًا ، حتى أعلن فجأة أنه توصل لاختراع آلة الزمن ، وحقق معجزة العلم فى عصره.. وعلى الرغم من غرابة الإعلان ومباغتته ، وشعور الجميع بالشك فى صحته ، وخاصة عندما يأتى عن لسان عالم مغمور مثله ، إلا أن أحدًا لم يتردد فى الحضور ، خشية أن يكون الرجل صادقًا ، فيخسر سبق العمر .

اعتدل يتطلع إلى عينيها ، وهو يسألها :

ـ ثم ماذا ؟

ضحكت عندما لاحظت نظرته ، فتراجع مرتبكًا ، وعاد يعقد حاجبيه فى صرامة ، قائلاً :

ـ أعنى ماذا حدث بعدها ؟.. لماذا لم ينعقد المؤتمر الصحفى ؟!

هزت رأسها ، مجيبة :

ـ لا أحد يدرى .. لقد توجه الجميع إلى منزله ، فى الموعد المحدود ، وكلهم لهفة لسماع ما سيقول ، ولرؤية آلة الزمن ، التى قال : إنه انتهى من صنعها بالفعل ، ولكنهم ما إن وصلوا ، حتى فوجئوا بالنيران تندلع فى المكان ، ورجال الإطفاء يبذلون قصارى جهدهم للسيطرة عليها ، فى حين كان الدكتور (هاشم) يقف فى الخارج ، ويصرخ كالمجنون : « آلتى .. أنقذوا آلتى » .

جذب الأمر انتباهه ، وهو يسأل :

ـ ألم يناشدهم إنقاذ سكرتيره ؟

أجابت بسرعة :

ـ لم يذكر شيئا عنه إلا فى تحقيقات الشرطة ، التى تلت ذلك ، والتى حضرها فى حالة يرثى لها ، وذكر فيها إن سكرتيره تسبّب فى تدمير آلة الزمن ، وفى احتراق معمله ، بكل أوراقه ومعادلاته .

انعقد حاجبا (ماهر) ، وهو يغمغم :

ـ لا ريب فى أن ذلك المحضر قد حوى الكثير والكثير .

أسرعت تخرج رزمة من الأوراق من حقيبتها ، قائلة :

ـ بالتأكيد .. لقد حصلت على نسخة منه .

حدّق فى الأوراق فى دهشة ، ثم رفع عينيه إليها ، هاتفا فى انبهار :

ـ أنت رائعة .. كيف أمكنك أن تفعلى كل هذا فى ساعات معدودة .

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ إنها طبيعة عملى .

ثم تراقصت على شفتيها ابتسامة مرحة ، وهى تغمز بعينها ، مضيفة :

ـ ثم إننى أجيد استخدام الكمبيوتر .

نطقتها ، وتحوّلت ابتسامتها إلى ضحكة قصيرة ، خفق لها قلبه ، وهو يتطلّع إليها ، قبل أن يتسلّل جزء منها إلى أعماقه ، وينعكس على شكل ابتسامة تزيّن شفتيه ، وهو يتمتم :

ـ عجبًا !.. عندما شاهدتك لأوّل مرة تصوّرت أنك متعالية مغرورة .

هزّت كتفيها مرى أخرى ، مجيبة :

ـ مطلقًا .. إننى أحترم نفسى وعملى فحسب .

ثم استطردت ، وهى تشير إلى الأوراق :

ـ ولكن دعنا نعُد إلى العمل .. لقد ملأ الدكتور (هاشم) محضر الشرطة كله بالحديث عن اختراعه ، ومدى الفائدة التى يمكن أن تعود على العالم به ، ثم بكى وهو يذكر سكرتيره (أشرف عبد الحميد) ، وأشار لأوّل مرة إلى أنه قد لقى مصرعه فى الحادث ، وبعدها انتابته لوثة عجيبة ، فراح يصرخ مناشدًا العالم بالتدخل لمساعدته على بناء آلة زمن جديدة ، ثم يبكى على معادلاته التى احترقت ، حتى بلغ به الأمر حد الانهيار التام ، فتم نقله إلى مستشفى الأمراض العصبية والنفسية فى حى (العباسية) ، حيث ظل هناك لعام كامل ، قبل أن يعود إلى الحياة الطبيعية .

سألها (ماهر) فى اهتمام :

ـ وماذا عن أولئك الذين حضروا لعقد المؤتمر الصحفى ؟

تنهّدت ، قائلة :

ـ لو طالعت الصحف ، التى صدرت فى اليوم التالى ، لوجدت أن الجميع تعاملوا مع الرجل بقسوة بالغة ، فاتهمته الصحافة بالنصب والدجل ، واتهمته الشرطة بتعمّد إحداث الحريق ، كوسيلة لإخفاء فشل آلته المزعومة ، وحتى مركز البحوث ، الذى كان يعمل فيه ، أوقفه عن العمل ، وحوّله إلى تحقيق

عاجل ، اتهموه فيه بتجاوز الخطوات الشرعية للإعلان عن أى كشف علمى جديد، وبعدم احترام قواعد العمل ، ونال جزاءً عنيفًا ، جعله يتقدّم باستقالته ، التى تم قبولها على الفور ، وطرد من عمله شر طردة .

مطّ شفتيه فى أسف ، قبل أن يسألها :

ـ أين عمل بعدها ؟

أشارت بسبّابتها ، مجيبة :

ـ لم يلتحق بأى عمل .. لقد باع كل ما يملكه ، وأودع المبلغ كله فى البنك ، وعاش من إيراده الضئيل لعشر سنوات كاملة ، اعتزل فيها العالم كله ، ولم يعد يلتقى بأحدًا ، أو يقابل أحد ، أو حتى يجرى أية اتصالات هاتفية .. بل ولم يمتلك هاتفًا أصلاً ، وكأنما يسعى لينسى الناس وجوده من الأساس .

تراجع متطلّعًا إليها فى اهتمام ، وسأل :

ـ وماذا بعد السنوات العشر ؟!

أجابته بسرعة كالمعتاد :

ـ يبدو أن موارده كلها قد نفدت ، مما اضطره للخروج للعمل ، فالتحق بوظيفة بسيطة ، لا تناسب مؤهلاته ، ولكنه كان شديد الانتظام فيها ، يحضر وينصرف فى المواعيد الرسمية بالضبط ، ويؤدى عمله على أكمل وجه ، على الرغم من انعزاله التام عن باقى العاملين ، وإصراره على عدم عقد أية صلات أو صداقات ، مهما كانت الأسباب .

سألها (ماهر) :

ـ أما زال يلتحق بهذا العمل حتى الآن ؟!

لوّحت بسبّابتها نفيًا ، قائلة :

ـ كلاّ .. لقد استقال منذ عام واحد ، ويقول زملاؤه إنه كان مبتهجًا يوم استقالته ، على عكس عهدهم به ، وإنه أشار إلى أنه توصّل أخيرًا إلى تصحيح كل معادلاته القديمة ، وبعدها لم يره أحد منهم قط .

هزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ قصة عجيبة بالفعل .

قالت فى حماس :

ـ لا تتحدّث عن العجائب الآن ، فلدى فى هذه الأوراق عجيبة أخرى ، ستفوق كل العجائب السابقة .

ثم مالت نحوه ، حتى تسلّل عطرها الرقيق إلى أنفه ، وهى ترفع أمام عينيه صورة ضوئية قديمة ، مستطردة :

ـ هل يمكنك تعرّف الشاب فى الصورة ؟

كانت الصورة قديمة ومتهالكة للغاية ، إلا أن (ماهر) تعرّف على الفور ، ذلك الشاب الذى يقف إلى جوار الدكتور (هاشم) ، الذى بدا أصغر مما هو عليه الآن بربع قرن على الأقل ..

وبكل الدهشة ، التى تفجّرت فى أعماقه ، هتف (ماهر) :

ـ رباه !.. إنه هو !!.. إنه (أشرف) .

ابتسمت المذيعة ، قائلة :

ـ مفاجأة .. أليس كذلك ؟

لم ينبس ببنت شفة ، وهو يحدّق فى الصورة ، وقفز إلى ذهنه سؤال واحد ، احتل عقله كله ، ثم سال ليملأ كل ذرة من كيانه ..

ما الذى حدث بالضبط ؟ ولماذا وقع الحريق ، الذى دمّر آلة الزمن ومعادلاتها ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

* * *

كانت عقارب الساعة تقترب من الموعد المحدود ، لعقد المؤتمر الصحفى ، فارتسم التوتر بأقصى صوره على وجه الدكتور (هاشم) ، وهو يفرك كفيه ، ويسير فى المكان جيئة وذهابًا ، مما جعل سكرتيره يبتسم ، قائلاً :

– رويدك يا دكتور (هاشم) .. ما هى إلا ساعة واحدة ، وينعقد المؤتمر الصحفى ، وتحيا لحظة انتصارك ، التى ستدخلك التاريخ من أوسع أبوابه .

مطّ الدكتور (هاشم) شفتيه ، وهو يتمتم فى عصبية :

– كل الطغاة دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه .. باب جهنم .. أنا لا أهتم بدخول التاريخ ، بقدر ما يهمنى أن أضع بصمة على نهج العلم .

ضحك (أشرف) قائلاً :

– من يدرى ؟!.. ربما أثبت الزمن فيما بعد أن معادلاتك لم تكن صحيحة تمامًا .

التفت إليه الرجل فى حدة ، قائلاً :

– ماذا تعنى ؟

لوّح (أشرف) بيده ، وواصل ضحكه ، وهو يقول :

– لا تسىء فهمى يا دكتور (هاشم) .. كل ما قصدته هو أنه ربما تكشف فى المستقبل أن العودة إلى الماضى بآلة الزمن ممكنة ، ويصبح التاريخ كله ملك يمينك آنذاك .

أجابه فى صرامة عصبية :

– مستحيل !.. لم يعد هناك وجود للماضى ، حتى تسافر إليه .

هزّ (أشرف) كتفيه ، قائلاً :

– من يدرى ؟!

انفرجت شفتا الدكتور (هاشم) ، وكأنما يهمّ بنطق شىء ما ، إلا أنه لم يلبث أن أطبقهما ، واستغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يتمتم :

– نعم .. من يدرى ؟.

ثم عاد يفرك كفيه ، ويتحرّك فى الحجرة بعصبية زائدة ، قائلاً :

– كم الساعة الآن ؟

أجابه (أشرف) مبتسمًا :

– الثانية عشرة وعشر دقائق .. بقيت خمسون دقيقة على موعد المؤتمر الصحفى .

ضرب الدكتور (هاشم) راحته بقبضته ، هاتفًا :

– لماذا لم نطلب عقده فى الثانية عشرة بالضبط ؟

غمغم (أشرف) :

ـ لكل شيء موعده .

لوّح الدكتور (هاشم) بذراعيه ، وضرب جانبى فخذيه براحتيه ، وهو يقول فى حدة :

ـ لماذا يمضى الوقت بهذا البطء ؟

كرّر (أشرف) :

ـ لكل شيء أوان يا دكتور (هاشم) .

كان الرجل يشعر بتوتر مبالغ بالفعل ، ولكنه لم يكن يحتمل الانتظار ، حتى يعلن عن الاختراع بنفسه ..

كان واثقًا من أن حياته كلها ستتغيّر ، بعد هذا الإعلان ..

بل حياة العالم كله ..

أخيرًا ، سيؤمن العديدون أن الطريق إلى العلم يبدأ حقًا بالخيال .

وأنه ما من شيء مستحيل ..

حتى ولو كان مجرّد فكرة ..

ومهما بلغت غرابتها ..

تملكته النشوة ، وهو يتخيّل عناوين الصحف ، وانبهار العلماء ، والتفاف العالم حوله ، و ...

« رباه !.. لقد انقطع التيار الكهربى .. » .

انتفض جسده فى عنف ، عندما هتف (أشرف) بالعبارة ، وصاح فى ارتياع :

ـ ماذا تقول ؟.. لماذا انقطع التيار الكهربى الآن ؟!.. لماذا ؟!. إنه لم ينقطع لحظة واحدة ، طوال عملنا فى صنع وتركيب الآلة .

أجابه (أشرف) فى توتر ، وهو يفحص المنصهرات :

ـ لا ريب فى أنه عطل طارئ .. كل المنصهرات هنا سليمة .

صاح (هاشم) فى عصبية شديدة :

ـ ماذا تنتظر إذن .. اتصل بشبكة الكهرباء .. بالمسئولين .. بأى شخص .. المهم أن يعود التيار الكهربى للعمل ، قبل موعد المؤتمر الصحفى .. لابد وأن تعمل آلة الزمن أمام عيون الجميع .

تلفّت (أشرف) حوله فى اضطراب ، محاولاً البحث عن وسيلة ما ، لتفادى تلك العقبة الطارئة ، ثم قفزت إلى ذهنه فكرة مباغتة ، جعلته يهتف :

ـ رباه !.. مولّد الطاقة يمكن أن يعمل بالكيروسين أيضًا .

صاح الدكتور (هاشم) :

ـ حقًا ؟!.. ماذا تنتظر إذن ؟. أسرع بإحضار بعض الكيروسين لتشغيله .

أجابه (أشرف) ، وقد استعاد حماسه :

ـ خزانه ممتلئ بالكيروسين .. سأذهب لتشغيله فحسب ، وسيصبح كل شيء على ما يرام .

أمسك الدكتور (هاشم) يده فى قوة ، قائلاً :

ـ مهلاً .. لو قمت بتشغيل المولّد ، ستنتقل الطاقة إلى آلة الزمن ، وربما جعلها هذا تبدأ عملها .

انعقد حاجبا (أشرف) ، وتوقّف مغمغمًا :

ـ آه .. هذا صحيح .

استغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ يمكننا أن نوصل سلكى الآلة بالمنصهرات الخاصة بالمنزل ،

وهكذا نستفيد من طاقة المولّد فى إضاءة المكان ، ثم نوصلها بالالة وقتما نريد .

بدا القلق على وجه الدكتور (هاشم) وهو يقول :

ـ هل تعتقد أن هذا ممكن ؟

أومأ (أشرف) برأسه ، واتجه نحو آلة الزمن ، وهو يجيب فى حماس :

ـ ليس لدى أدنى شك فيه .. هل نسيت أننى حاصل على دبلوم الصنائع قسم الكهرباء ؟. وأننى شاركت فى تركيب هذه الآلة بنفسى .

تزايد قلق الدكتور (هاشم) ، وهو يتابعه ببصره ، قائلاً :

ـ احترس يا (أشرف) .. أجهزة الآلة شديدة الحساسية .

أجابه الشاب ، هو يفتح مستقبل الطاقة فى الآلة :

ـ لا تقلق يا دكتور (هاشم) .. اذهب فقط لتشغيل المولّد ، وعندما تعود سيكون كل شىء على ما يرام .

تردّد الدكتور (هاشم) قليلاً ، ثم اتجه إلى المنزل المجاور ، وهو يغمغم مكرّرًا :

ـ احترس .

كان المولّد يحتلّ صالة المنزل الآخر كلها تقريبًا ، وتمتدّ منه كابلات كبيرة ، عبر تجاويف تم صنعها بالجدار ، إلى آلة الزمن ، فخفق قلب الدكتور (هاشم) فى قوة ، وهو يتطلّع إليه ، ثم تسلّل بصره فوقه ، حتى توقّف عند ذراع التشغيل ، فتمتم فى اضطراب شديد :

ـ أرجو من كل قلبى أن تكون على حق يا (أشرف) .

ثم أمسك ذراع التشغيل ، والتقط نفسًا عميقًا ، وصاح بأعلى صوته :

ـ هل أنت مستعد يا (أشرف) ؟

أتاه صوته يجيب :

ـ مستعد يا دكتور (هاشم) .. قم بالتشغيل .

بسملَ الدكتور (هاشم) وحوقل ، ثم جذب الذراع ، و...

وفى اللحظة ذاتها ، عاد التيار الكهربى ..

وبكل قوته ..

وانتفض جسد الدكتور (هاشم) فى عنف ، مع ذلك الوميض القوى ، الذى انطلق من الشقة التى تحوى الآلة ، ممتزجًا بفرقعة عنيفة ، وصرخة رهيبة ، تحمل صوت (أشرف) ...

وبكل الذعر والهلع فى أعماقه ، صرخ الدكتور (هاشم) :

ـ لا .. آلتى .. لا .

ثم انطلق يعدو نحو المنزل الآخر ، ولكنه لم يكد يبلغه ، حتى دوى الانفجار ..

انفجار عنيف أطاح بجسده لخمسة أمتار كاملة ، وألقاه فوق السلم ، الذى تدحرج فوقه فى قوة ، حتى استقرّ جسده أرضًا ، فى الطابق السفلى ، وألسنة النيران تندلع فى المكان كله لتضع لمسة النهاية ..

نهاية الحلم ..

حلم آلة الزمن ..

* * *

بكى الدكتور (هاشم) فى حرارة ، عندما بلغ (أشرف) هذه المرحلة من روايته ، حتى خُيِّل لـ (منير) أن قلبه سينفطر حزنًا وألمًا ، فاتجه إليه ، وربَّت على كتفه ، قائلاً فى رفق :

ـ هل تؤلمك الذكريات إلى هذا الحد ؟

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وهو يقول بمرارة لا حد لها ، ودموعه تغرق وجهه :

ـ كانت أسوأ لحظات حياتى .. لقد فقدت كل شىء فى لحظة واحدة .. منزلى .. آلة الزمن .. أوراقى .. المعادلات التى توصّلت إليها بعد كفاح طويل .. وسمعتى .

قال (أشرف) مبتسمًا :

ـ وماذا عنى ؟!

رفع عينيه الدامعتين إليه ، قائلاً :

ـ كان لدى دائمًا الشك فى أننى سأراك ثانية .. الضوء المبهر، والفرقعة .. لقد استنتجت أن الآلة ألقت بك عبر الزمن ، خاصة وأن الانفجار نسف كل شىء فى عنف ، وتولّت النيران المستعرة التهام الباقى ، حتى أنهم لم يعثروا على جثتك قط ، ولكن أحدًا لم يصدقنى ، أو يحاول الاستماع إلىّ ، وإنما اتهمونى بالكذب والنصب والجنون .. لقد حطموا سمعتى تمامًا ، حتى أننى لم أنجح قط فى إقناع أى ممولٍ آخر بتمويل مشروع صنع آلة زمن جديدة .

قالها ، وعاد يبكى فى حرارة زائدة ، مستطردًا :

ـ ولم يصدقنى أحد ، عندما ذكرت الحقيقة .. لم يصدقنى أحد قط .

ارتفع فجأة صوت حازم يقول :

ـ أنا أصدقك .

التفت الجميع إلى مصدر الصوت فى دهشة ، وارتفع حاجبا المفتش (منير) ، وهو يهتف فى ذهول :

ـ أنت يا (ماهر) ؟!

انعقد حاجبا (ماهر) ، ومطّ شفتيه فى ضيق ، وهو يدلف إلى الحجرة ، ويغلق بابها خلفه ، مجيبًا :

ـ نعم .. أنا .. أنا أصدّق قصة الدكتور (هاشم حداد) .

هتف (منير) :

ـ ولكنك كنت أكثر من يعارضها .

أشاح (ماهر) بوجهه ، قائلا :

ـ ليس من العيب أن يعود المرء إلى الحق ، عندما يتبيّن له خطأ ما كان يؤمن به .. لقد راجعت ملف الدكتور (هاشم) ، واقتنعت أخيرًا بقصته .

بدا الدكتور (هاشم) أكثر الجميع انبهارًا ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

أومأ المفتش (ماهر) برأسه إيجابًا فى شىء من الضيق ، واتجه إلى أقرب مقعد إليه ، واستقرّ فوقه ، قائلا :

ـ المرء لا يسعد بالتأكيد ، عندما يعترف بأنه كان مخطئا ، وأنا مازلت أشعر بالحيرة وعدم التصديق ، إزاء فكرة آلة الزمن هذه ، إلا أنه من العدل أن أعترف بأن كل الدلائل تشير إلى أن قصتك صحيحة ، وأن هذا الشاب قد انتقل إلى هنا عبر الزمن .

ثم التفت إلى (أشرف) ، مستطردًا بابتسامة باهتة :

ـ قل لى يا (أشرف) : ما الذى شعرت به ، وأنت تجتاز حاجز الزمن ؟

كان (أشرف) يتطلّع إليه فى دهشة عجيبة ، فاعتدل فى سرعة ، عندما سمع السؤال ، ولوّح بكفه ، قائلا :

ـ لم أشعر بشىء محدود .. فقط سمعت الفرقعة ، وغصت وسط الضوء المبهر ، ثم وجدت نفسى فجأة هنا ، أرتجف بردًا ، فى ليلة رأس السنة ، من عام ألفين وعشرة ، أى بعد ربع القرن من اللحظة التى انتقلت منها إلى هنا .

انعقد حاجبا (منير) ، وهو يسأل (ماهر) :

ـ كيف تحوّل موقفك على هذا النحو ؟! لقد كنت شديد المعارضة لفكرة آلة الزمن ، ثم اقتنعت بها فجأة ، فكيف حدث هذا ؟

ناوله (ماهر) تلك الصورة القديمة ، وهو يقول :

ـ هذه الصورة .

انعقد حاجبا (منير) أكثر ، وهو يتطلّع إلى الصورة ، و(ماهر) يتابع :

ـ لقد تم التقاط هذه الصورة منذ ما يزيد على ربع القرن ، وفيها يظهر الدكتور (هاشم) فى شبابه ، وإلى جواره يقف (أشرف) ، ولا يمكن أن يحدث هذا ، ما لم يكن (أشرف) قد انتقل إلينا ، بنفس عمره وهيئته ، عبر ربع قرن من الزمن بقفزة واحدة .

ابتسم (أشرف) ، وتنهّد الدكتور (هاشم) فى ارتياح ، فى حين تطلّع المفتش (منير) أكثر إلى الصورة ، قبل أن يعتدل قائلا :

ـ التشابه كبير بالفعل .

قال (ماهر) فى دهشة :

ـ التشابه كبير ؟!.. هذا أمر طبيعى يا رجل ، فصاحب الصورة والواقف أمامك هما شخص واحد .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (منير) ، وهو يقول :

ـ لا تتسرّع هكذا يا زميلى العزيز .. صحيح أن كل ما رواه الدكتور (هاشم) وهذا الشاب صحيحٌ تمامًا . وأن كلاً منهما قد أدى دوره على خير ما يرام ، إلا أن هذا لا يعنى أنهما صادقان .

انعقد حاجبا (ماهر) ، وهو يقول :

ـ (منير) .. هل تسخر منى ؟

أجابه (منير) فى حزم :

ـ مطلقًا يا (ماهر) .. إنما أقول الحقيقة مجرّدة .. فالدكتور (هاشم) وهذا الشاب نصابان .. نصابان كبيران .

وكانت مفاجأة عنيفة ..

ومخيفة ..

* * *

٦ ـ الخدعة ..

اتسعت عينا المفتش (ماهر) عن آخرهما ، وهو يحدّق فى وجه زميله (منير) ، وقد امتلأت نفسه بمزيج من الدهشة والحيرة ، بلغا أقصى حدهما فى أعماقه ، بل وبدا له الأمر كله غير مفهوم على الإطلاق ..

ففى اللحظة التى انقلبت فيها مفاهيمه ، واعترف بأنه أصبح مقتنعًا إلى حد كبير ، بأن آلة الزمن كانت حقيقة واقعة ، استطاعت نقل السكرتير الشاب لربع قرن إلى مستقبله ، يتراجع زميله تمامًا ، ويتخلّى عن إيمانه بوجودها ، ويعلن شكه فى الموقف كله ، بل ويتهم العالم وسكرتيره بأنهما نصابان ، احتالا على الجميع فى براعة منقطعة النظير ..

وفى حركة حادة ، التفت (ماهر) يتطلّع إلى الدكتور (هاشم) و(أشرف) ، وكأنه يتوقّع منهما استنكارًا أو اعتراضًا على ما نطق به (منير) ، إلا أن الارتياع الذى حفر وجوده على وجهيهما فى وضوح جعله يهتف :

ـ مستحيل !

قال (منير) فى هدوء واثق :

ـ بل هو أمر ممكن للغاية ، وتمت دراسته بدقة ، ورسم الدكتور (هاشم) خطواته فى براعة تؤهله لنيل جائزة

كتّاب السيناريو ، وهذا لا ينقص من براعة (أشرف) المزيّف هذا بالطبع ، فقد أدى دوره فى براعة يحسده عليها أعظم ممثلى العصر ، وبخاصة عندما التقى بالدكتور (هاشم) لأوّل مرة ، وأبدى كلاهما الدهشة والانبهار .. كانت ذروة الأداء المسرحى بالفعل .

نقل (ماهر) بصره بين وجوه الجميع فى توتر شديد ، قبل أن يهتف :

ـ ألن تقول شيئا يا دكتور (هاشم) ؟

شحب وجه الشاب فى شدة ، فى حين ارتجفت شفتا الدكتور (هاشم) بضع لحظات ، قبل أن يترك جسده يسقط على طرف الفراش الطبى الصغير ، وهو يتمتم فى انهيار واضح :

ـ كيف عرفت ؟

اتسعت عينا (ماهر) أكثر وأكثر ، وهو يهتف :

ـ ماذا ؟!!.. إذن فأنت تعترف !!

خفض الدكتور (هاشم) عينيه فى مرارة ، فى حين قال (منير) :

ـ لا يمكنه الإنكار .. إنه أذكى من أن يتلاعب بى ثانية ، خاصة وأنه يدرك تماما أنه لن يحتمل ضغط التحقيقات ، بعد أن انكشف أمره .

ارتجف الشاب ، وقال فى ذعر :

ـ أنا لست المسئول عما حدث .. هو الذى أقنعنى بالقيام

بالدور ، ووعدنى بمبلغ ضخم من النقود التى ستنهال عليه ، بعد نجاح اللعبة .

كاد (ماهر) يصرخ هذه المرة ، وهو يسأل (منير) :

ـ كيف عرفت هذا بالله عليك ؟

هزّ (منير) كتفيه ، وهو يقول فى بساطة :

ـ بالتحليل المنطقى .. لقد بدأ الشك يراودنى ، عندما انفعل الدكتور (هاشم) فى حدة ، مع إشارتك إلى فشل اختراعه ، فقد تحدّث عندئذ عن انتظاره لظهور ذلك المقعد ، من طراز لويس السادس عشر ، والذى يحمل توقيع صانعه ، حتى يثبت أن آلته الزمنية كانت حقيقية .. قال هذا دون أن يشير إلى الشاب ، الذى يرقد على قيد أمتار منه ، والذى رآه بنفسه ، ويدرك جيدا أنه من الممكن أن يكون أقوى دليل على نجاح آلته بالفعل .

غمغم (ماهر) :

ـ وما الذى يعنيه هذا ؟

أجابه (منير) على الفور :

ـ يعنى أنه واثق من أن الشاب ليس دليلا ، وفى انفعاله الحقيقى ، تمنى لو يظهر المقعد .

أومأ الدكتور (هاشم) برأسه ، وكأنما يؤمن على قول (منير) ، الذى تابع بنفس الثقة والهدوء :

ـ ولكن النقطة التى كشفت لى الأمر كله ، وجعلتنى واثقا من

أن كل هذا مجرّد خدعة ، كانت عبارة نطق بها (أشرف) .

هتف الشاب فى دهشة :

ـ أنا ؟!

أجاب (منير) ، وهو يشير إليه بيده :

ـ أعترف أنك درست دورك جيدًا ، وأن الدكتور (هاشم) اختارك بعناية بالغة ، للتشابه الشديد بينك وبين سكرتيره السابق ، ولأنك لم تحصل على مؤهل مناسب ، ولم تسجل بصماتك بعد .. كل شىء تمت دراسته بدقة ، حتى يقنعنا بأن السكرتير لم يلق مصرعه فى الانفجار ، وإنما انتقل عبر الزمن إلى هنا ، ولكن عندما سألك الدكتور (هاشم) عمن سيروى منكما الجزء الأخير من القصة ، أجبته أنت بأنك ستفعل ، خشية أن يؤذى الانفعال قلبه المريض ، على الرغم من أنه من المفترض أنك عندما رأيته لآخر مرة ، لم يكن يعانى من أية متاعب صحية ، فى عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين ، فكيف أدركت أن قلبه مريض ، فى عام ألفين وإحدى عشرة ؟!

ارتسمت على شفتى الدكتور (هاشم) ابتسامة مريرة ، وهو يغمغم :

ـ كنت أعلم أن الأمور لن تسير على مايرام طوال الوقت ، وأن خطأ ما سيحدث حتمًا ، ولكننى تصورت أن انبهار الناس بالموقف سيجعلهم لا ينتبهون كثيرًا إلى أية أخطاء بسيطة .

انعقد حاجبا (ماهر) ، وهو يندفع نحو الدكتور (هاشم) ، هاتفًا :

ـ أيها الوغد الكاذب .. لقد خدعتنا برواية ملفقة ، و ..

قاطعه (منير) بسرعة ، وهو يعترض طريقه ، قائلاً :

ـ مهلاً يا (ماهر) .. صحيح أن الدكتور (هاشم) رتّب الخدعة كلها ، ولكنه لم يكذب فى روايته قط .

صاح (ماهر) فى غضب :

ـ لم يكذب ؟!.. أى قول هذا يا رجل ؟!.. كيف يتفق الخداع والصدق ؟!

أجابه (منير) ، وهو يبعده عن الرجل والشاب فى رفق :

ـ لقد اتفقا هذه المرة .. صدّق أو لا تصدّق ، ولكن الدكتور (هاشم) روى لنا القصة الحقيقية على الأرجح .

والتفت إلى الدكتور (هاشم) ، قائلاً :

ـ أليس كذلك ؟

كان وجه العالم شاحبًا بشدة ، وهو يغمغم :

ـ بلى .. لقد رويت كل ما حدث بالفعل ، ولكننى اضطررت لإعداد هذه الخدعة ، حتى أعثر على تمويل جديد لصنع آلة الزمن ، بعد أن توصلت إلى معادلات جيدة ، ستكون نتائجها أفضل بالتأكيد من القديمة .. لقد بذلت جهدًا مضنيًا ، طوال ربع القرن ، فى محاولة لإقناع أى مخلوق بتمويل المشروع ، ولكن الشائعات التى انطلقت حولى ، والتى أحاطت بى بشدة ، بعد فشل التجربة الأولى ، جعل الجميع يحجمون عن هذا .. لقد حاولت وحاولت .. وقدّمت التصميمات والمعادلات .. ولكن من يفهم ، ومن يستوعب .

ولهث فى شدة ، من فرط الانفعال ، قبل أن يتابع :

- وعندما انتابنى اليأس تمامًا ، التقيت بـ (هيثم) .

سأله (ماهر) فى حدة عصبية :

- ومن (هيثم) هذا أيضًا ؟!

أشار الشاب إلى صدره ، وهو يرتجف قائلاً :

- إنه اسمى الحقيقى .

مطّ (ماهر) شفتيه فى ازدراء ، فامتقع وجه الشاب فى شدة ، فى حين تابع الدكتور (هاشم) وكأنما أراحه أن يفرغ ما أثقل صدره طويلا :

- فى البداية أذهلنى التشابه الشديد بينه وبين (أشرف) ، ثم علمت بعدها أنه يحمل شهادة متوسطة ، على الرغم من ذكائه الواضح ، وأن بصماته لم يتم تسجيلها بعد ، فى أرشيف الكمبيوتر العام ، وهنا بدأت الفكرة تختمر فى ذهنى ، ولم يكن يعترضها سوى أمر واحد .. أن عمر (أشرف) كان يزيد على عمر (هيثم) بثلاثة أعوام ، عندما وقع الحادث .. ولكننا تجاوزنا هذه العقبة بعد أن راجعت كتب الطب الشرعى ، وعلمت أن هذه الفترة القصيرة لن تصنع فروقًا يمكن كشفها ، بالنسبة للنمو والعظام ، وأن أى خبير سيعزوها إلى الاختلافات الطبيعية بين بعض البشر وبعضهم .. وهنا رحت أشرح فكرتى لـ (هيثم) ، الذى استوعبها بسرعة ، وتعاون معى جيدًا لإتقان دوره ، وتدرّب على كيفية أدائه ، حتى حانت اللحظة .. لحظة التنفيذ ..

توقّف ليلهث قليلا ، فسأله (منير) :

- هل تحتاج إلى مساعدة طبية ؟!

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

- كلاّ .. أنا بخير ..

قالها ، على الرغم من أنه التقط أنفاسه فى صعوبة لبعض الوقت ، قبل أن يتابع :

- وفى اليوم المنشود ، ظلّ (هيثم) ساهرًا طويلا ، وقضى ما يقرب من عشرين ساعة فى نشاط متواصل مستمر ، مع القليل جدًا من الطعام ، حتى يبدو مرهقًا منهكا ، عندما يتمّ العثور عليه ، وارتدى ملابس صيفية ، تشبه إلى حد كبير تلك التى كان يرتديها (أشرف) ، فى يوم الحادث ، ثم بدأت اللعبة .

هتف (ماهر) :

- يالكما من وغدين !

أما (منير) ، فسأل الرجل فى اهتمام :

- وعندما كنت تضع خطتك ، ألم تخش أن يتعرّف أصدقاء (هيثم) وزملاؤه القدامى رفيقهم ، فينكشف السر كله ؟

بدت الدهشة على وجه الدكتور (هاشم) ، وهو يغمغم :

- عجبًا !.. كيف لم تخطر هذه الفكرة برأسى ؟

ابتسم (منير) ، قائلا :

- هذا لأنك لست مجرمًا بطبعك .

صاح (ماهر) فى غضب :

- بل هو أكبر مجرم رأيته فى حياتى كلها .. لقد صنع أكبر عملية نصب فى هذا القرن ، ليستولى على الملايين ، بحجة صنع آلة الزمن المزعومة .

هتف الدكتور (هاشم) فى حدة ، ووجهه يحتقن فى شدة :

– كلاّ .. لا تقل هذا .. أعترف بأن ظهور سكرتيرى كان مجرّد خدعة ، ولكن هذا لا يعنى أن آلة الزمن كذلك .. إنها حقيقة .. حقيقة ستثبت يومًا ، و ...

جحظت عيناه بغتة ، وهو يبتر عبارته ، وتلاحقت أنفاسه فى شدة ، فقفز (منير) من مكانه ، هاتفًا فى انزعاج ، وهو يلتقط الرجل بين ذراعيه :

– استدع فريق أطباء الطوارئ يا (ماهر) .

اندفع (ماهر) يغادر المكان فى سرعة ، وهو يهتف :

– فريق أطباء الطوارئ .. أين فريق أطباء الطوارئ ؟!

صاحت به المذيعة ، وهى تهرع مع فريق التصوير إلى الحجرة :

– ماذا حدث ؟!.. ماذا حدث ؟!

واقتحم الجميع الحجرة دون استئذان ، فى نفس اللحظة التى هرع فيها فريق أطباء الطوارئ إلى المكان ، وقال (منير) للدكتور (هاشم) فى توتر :

– اطمئن يا دكتور . سيسعفونك على الفور .

كان الرجل يلهث فى شدة ، وهو يهمس :

– آلة الزمن حقيقة .. صدقنى .. إننى أحتفظ بكل المعادلات فى .. فى ..

شهق فجأة ، قبل أن يتمّ عبارته ، وجحظت عيناه فى شدة ، وارتجف جسده فى عنف ، ثم تراخى فجأة بين ذراعى (منير) ، الذى هتف فى ارتياع :

– دكتور (هاشم) .

أزاحه رئيس فريق الأطباء جانبًا ، وراح مع فريقه يبذلون

قصارى جهدهم لإسعاف الرجل ، و (ماهر) و (منير) يتابعان عملهم فى توتر ، وفريق التصوير ينقل المشهد على الهواء مباشرة ، والمذيعة تعلق عليه فى انفعال ، حتى رفع رئيس فريق الأطباء رأسه فى أسف ، وتنهّد قائلاً :

– لا فائدة .. لقد رحل .

أصابت الدهشة الجميع ، وهم يحدقون فى جثة الدكتور (هاشم) ، قبل أن تهتف المذيعة فى انفعال شديد :

– يا للقدر !.. فى نفس اليوم ، الذى أثبت فيه الدكتور (هاشم) صحة نظريته الخاصة بالسفر عبر الزمن ، أصابته أزمة قلبية أودت به .. لم يعش لينعم بلحظة انتصاره .. لم يمهله القدر ليفعل .

تبادل (ماهر) و (منير) نظرة صامتة ، قبل أن يقول (ماهر) فى حنق :

– اللعنة .. سيصنعون من ذلك الأحمق بطلاً .

تمتم (منير) فى حزن حقيقى :

– إنه ليس أحمق .. إنه واحد من أفضل علماء (مصر) .

حدّق (ماهر) فى وجهه باستنكار ، ثم قال :

– ماذا دهاك يا رجل ؟!.. أما زلت تعتبر ذلك المأفون عالمًا ، بعد أن اتفق على عملية النصب ، هو وذلك الـ ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يهتف :

– اللعنة !.. أين ذلك الشاب (هيثم) ؟.. لقد استغلّ اللعين انشغالنا بإسعاف الرجل ، وبادر بالفرار .. اللعنة .. اللعنة !

تركه (منير) يعدو محاولاً اللحاق بالشاب ، فى حين توقّف هو جامدًا كالتمثال ، يتمتم فى توتر بالغ ، وهو يتطلّع إلى جثة الدكتور (هاشم) :

- أين وضعت معادلاتك يا دكتور (هاشم) ؟.. أين ؟

نطقها وهو يدرك أنه يتطلع إلى نهاية الحلم ، الذى كاد يتحول إلى حقيقة فى صورة آلة ..

آلة زمن ..

* * *

« من يصدق هذا ؟!.. » .

ألقى (ماهر) السؤال فى حماس شديد ، وبلهجة تحمل سعادة واضحة ، ولوح بذراعه كلها ، قبل أن يضيف :

- عندما التقيت بـ (هدى) فى ذلك المستشفى ، منذ شهرين فحسب ، بادر كل منا الآخر برد فعل عنيف ، وها نحن ذا الآن زوجين سعيدين ، لا يطيق أحدنا فراق الآخر لحظة واحدة .

ابتسم (منير) ابتسامة باهتة ، وهو يغمغم :

- من الواضح أن كلاً منكما يناسب الآخر تماما .

ضحك (ماهر) فى سعادة ، وهو يقول :

- هل تعلم أننا ننتظر طفلا ؟

تمتم (منير) ، وهو يقود السيارة فى بطء :

- مبارك .

التفت إليه (ماهر) ، وتطلع إلى وجهه لحظة ، قبل أن يعقد حاجبيه ، قائلا :

- ماذا بك ؟!.. أما زلت تفكر فى هذا الأمر ؟!.. لقد انتهت قضية آلة الزمن المزعومة هذه منذ شهرين كاملين ، وتم إغلاق ملفها تماما .. حتى وسائل الإعلام سئمت ترديدها ، فماذا بك ؟!

أجابه (منير) فى شىء من الضيق :

- الرجل كاد يخبرنى بمكان معادلاته .

هتف (ماهر) :

- أية معادلات ؟!.. هل تصدق كل هذا ؟.. آلة الزمن هذه مجرد وهم يا صديقى .. وهم استغله كتاب الخيال العلمى ليثروا على حساب القراء السذج أمثالك .. استيقظ من غفوتك يا رجل ، وعد إلى عالم الواقع .. العالم الذى لا يحوى آلات زمن ، أو وحوشا من عوالم أخرى ، أو أطباقا طائرة ، أو حتى جراثيم ذكية .. احرق كل ما لديك من قصص الخيال العلمى السخيفة ، والحق بنا فى عالمنا هذا .

صمت (منير) لحظات ، ثم تنهد قائلا :

- أنت على حق .. من الواضح أننى أنهك نفسى أكثر مما ينبغى .. ربما كان الرجل مخطئا فى معادلاته ، وهذا ما أدى إلى انفجار آلته عند تجربتها .

قال (ماهر) فى انفعال :

- هذا لو كانت هناك آلة منذ البداية .

أومأ (منير) برأسه متفهما ، وواصل القيادة لبضع لحظات ، قبل أن يرتفع صوت مراقبة التوجيه ، عبر جهاز الكمبيوتر ، وهى تقول :

- حادث سير فى المنطقة السابعة ، يحتاج إلى تغطية عاجلة .

اعتدل (ماهر) فى مقعده ، وهو يقول :

- ألم أقل لك : إننا ستعود حتما إلى عالم الواقع .. هيا ننطلق إلى المنطقة السابعة ، لنحقق فى أمر حادث السير هذا .

انطلق (منير) بالسيارة ، حتى بلغا منطقة الحادث ، وهناك استقبلهما شرطى المرور ، والتوتر يملأ ملامحه ، على نحو جعل (ماهر) يسأله فى صرامة :

- ماذا بك يا رجل ؟.. تبدو وكأنك شاهدت شبحا .. إنه مجرد حادث سير .. أليس كذلك ؟

أشار الشرطى بيده ، قائلاً :

- بلى يا سيّدى ، إنه مجرّد حادث سير ، ولكن السبب الذى أدّى إلى حدوثه هو الذى يربكنى ، فقد كان كل شىء يسير على ما يرام ، عندما ظهرذلك الشىء بغتة ، ففقد قادة السيارات سيطرتهم ، وارتطموا بعضهم بالبعض .

انعقد حاجبا (منير) ، وهو يسأله :

- ماذا تعنى بأنه ظهر فجأة ؟

لوّح الرجل بيديه فى توتر بالغ ، وهو يجيب فى عصبية :

- أعنى أنه برز فجأة من الفراغ ، وسقط على إحدى السيارات ، وكأنما نشأ من العدم .. آه يا سيّدى المفتش .. لن يمكنك أن تتخيّل هذا قط ، مالم تره بنفسك .

قال (ماهر) للشرطى فى غضب :

- كفى سخافات يارجل .. إنك تحتاج إلى فحص عينيك ، قبل أن ..

قاطعه (منير) وهو يسأل الشرطى فى حزم :

- أين ذلك الشىء ؟

قاده الشرطى إلى منطقة الحادث ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

- ها هو ذا .

اتسعت عينا (ماهر) فى ذهول ، فى حين انعقد حاجبا (منير) فى شدة ، وهو يتمتم :

- رباه !.. لقد كان على حق ..

فأمامهما مباشرة ، ووسط السيارات التى ارتطمت ببعضها ، كان يستقر مقعد من طراز لويس السادس عشر ، يحمل توقيع صانعه .

مقعد أتى من مكان آخر ..

وزمن آخر .

* * *

[تمت بحمد الله]

حلول اختبر معلوماتك

١ ــ إبراهيم باشا .
٢ ــ إبصار .
٣ ــ أديس أبابا .
٤ ــ الأزتيك .
٥ ــ الاسطرلاب .
٦ ــ الأرغول .
٧ ــ هنريك أبسن .
٨ ــ ابن عرس .
٩ ــ قرطبه .
١٠ ــ ابن العوام ..
١١ ــ الإنكلستوما .
١٢ ــ الأيل .
١٣ ــ كرة الماء .
١٤ ــ البرازيل .
١٥ ــ الشاى .
١٦ ــ الرخام .
١٧ ــ أيقونوغرافيا .
١٨ ــ أنطونى إيدن .
١٩ ــ العنكبوت .
٢٠ ــ اللوفر .

* * *

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

٢١٢٦٩

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثار

فى هذا الكتاب

	صفحة
الظلال .. (قصة قصيرة)	٥
اختبر معلوماتك	٢٢
فاى (سلسلة جديدة)	
عملية تل ابيب (الجزء الأول)	٢٩
المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة)	٩٨
قصة العدد	
آلة الزمن	١١٣
عزيزى القارئ (١)	٢١٣
عزيزى القارئ (٢)	٢٣٠
حلول اختبر معلوماتك	٢٥٣

الثمن فى مصر ٢٠٠
ومايعادله بالدولار الامريكى
فى سائر الدول العربية والعالم